الفصل الرابع: في مجال الأخلاق والآداب

المبحث الأول: علاقة أهل الكتاب برسلهم وتعنت اليهود:

المطلب الأول:

بعض قبائح اليهود وجزاؤهم

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}(١)

لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى: عسلاً وطيراً ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء لقد أخرجهم الله - على يدي نبيهم موسى - عليه السلام - من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء وما إليها! وهذا ما يذكرهم القرآن به وهم يدعون في المدينة دعواهم العريضة:

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بَالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}

(١) البقرة: ٦١.

ولقد تلقى موسى - عليه السلام - طلبهم بالاستنكار:

{أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بَالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟}

أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية؟

{اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ}

إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء؛ فهو موفور في أي مصر من الأمصار، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التي أخرجتم منها عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة إلى حياتكم الخانعة الذليلة حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها ويكون هذا من موسى - عليه السلام - تأنيباً لهم وتوبيخاً

وأنا أرجح هذا التأويل الذي استبعده بعض المفسرين [1]، أرجحه بسبب ما أعقبه في السياق من قوله تعالى:

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}

فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله، لم يكن - من الناحية التاريخية - في هذه المرحلة من تاريخهم؛ إنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها:

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ}

وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال إنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء! فناسب أن يكون قول موسى لهم:**{اهْبِطُوا مِصْراً}** هو تذكير لهم بالذل في مصر، وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان!

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم - وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين - وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا

(١) ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة /٨.

أبشع المعصية وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل!

ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبة كانوا دائما يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون، وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله؛ وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك وهنا يكذب القرآن هذه الدعوى العريضة، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية، التي تتخلل القصص القرآني، أو تسبقه أو تتلوه يقرر قاعدة وحدة الإيمان ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى إسلام النفس لله، والإيمان به إيماناً ينبثق منه العمل الصالح وإن فضل الله ليس حجراً محجوراً على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين، في كل زمان وفي كل مكان، كل بحسب دينه الذي كان عليه، حتى تجيء الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصير المؤمنون إليه:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}(١)

والذين آمنوا يعني بهم المسلمين والذين هادوا هم اليهود - إما بمعنى عادوا إلى الله، وإما بمعنى أنهم أولاد يهوذا - والنصارى هم أتباع عيسى - عليه السلام - والصابئون: الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى، ملة إبراهيم، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم(٢)

* * * * *

(١) البقرة: ٦٢.
(٢) ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة /٩.

المطلب الثاني:
مؤمنوا أهل الكتاب

{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} (١)

قولـه تعالى:**{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ}** قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل: لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد ﷺ إلا شرارُنا ولولا ذلك لما تركوا دين آبائهم فأنزل الله تعالى هذه الآية(٢)

واختلفوا في وجهها فقال قوم: فيه اختصار تقديره: ليسوا سواء من أهل الكتاب أمةٌ قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاءً بذكر أحد الفريقين وقال الآخرون: تمام الكلام عند قولـه:**{لَيْسُوا سَوَاءً}**

قال ابن مسعود رضي الله عنه معناه: لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق، المستقيمة، وقولـه تعالى:**{أُمَّةٌ قَائِمَةٌ}** قال ابن عباس: أي مهتدية قائمة على أمر الله لم يُضيِّعُوه ولم يتركوه

وقال مجاهد: عادلة وقال السدي: مطيعة قائمة على كتاب الله وحدوده، وقيل: قائمة في الصلاة وقيل: الأمة الطريقة

ومعنى الآية: أي ذو أمة أي: ذو طريقة مستقيمة

{يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ} يقرؤون كتاب الله وقال مجاهد: يتبعون

{آنَاءَ اللَّيْلِ} ساعاته، واحدها: إنيٌ مثل نحى وأنحاء، وإنيً وآناء مثل: مِعىً وأمعاء وإني مثل منا وأمناء

(١) آل عمران: ١١٣ - ١١٥.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي صفحة / ١٥٢.

وهو وقف لأنه قد جرى ذكر الفريقين من أهل الكتاب في قولـه تعالى:**{مِنْهُم الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُم الْفَاسِقُونَ}** ثم قال:**{لَيْسُوا سَوَاءً}** يعني: المؤمنين والفاسقين ثم وصف الفاسقين فقال:**{لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلا أَذًى}** ووصف المؤمنين بقولـه:**{أُمَّةٌ قَائِمَةٌ}** وقيل: قولـه:**{مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** ابتداء بكلام آخر، لأن ذكر الفريقين قد جرى، ثم قال: ليس هذان الفريقان سواء ثم ابتدأ فقال: من أهل الكتاب.

{وَهُمْ يَسْجُدُونَ} أي: يصلون لأن التلاوة لا تكون في السجود

واختلفوا في معناها فقال بعضهم: هي في قيام الليل، وقال ابن مسعود: هي صلاة العتمة يصلونها ولا يصليها من سواهم من أهل الكتاب

وقال عطاء: "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمةٌ قائمة" الآية يريد: أربعين رجلا من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدّقوا محمدًا ﷺ وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبي ﷺ منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معْرُور ومحمد بن سلمة ومحمود بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين، يغتسلون من الجنابة، ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله تعالى بالنبي ﷺ فصدقوه ونصروه(١)

قوله - تعالى:**{لَيْسُواْ سَوَآءً}** يعود لأهل الكتاب الذين تقدم الحديث عنهم وهو اسم ليس، وخبرها قوله**{سَوَآءً}** والجملة مستأنفة للثناء على من يستحق الثناء منهم بعد أن وبخ القرآن من يستحق التوبيخ منهم

قال ابن كثير: والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال - تعالى:**{لَيْسُواْ سَوَآءً}** أى ليسوا كلهم على حد سواء بل منهم المؤمن ومنهم المجرم

وقوله - تعالى:**{مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ}** استئناف مبين لكيفية عدم التساوى ومزيل لما فيه من إيهام

أى: ليس أهل الكتاب متساوين فى الكفر وسوء الأخلاق، بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له، لم تتركه كما تركه الأكثرون من أهل الكتاب وضيعوه

فمعنى قائمة: مستقيمة عادلة من قولك أقمت العود فقام بمعنى استقام

أو معناها: ثابتة على التمسك بالدين الحق، ملازمة له غير مضطربة فى التمسك به، كما فى قوله - تعالى:**{إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً}** أى ملازمة لمطالبته بحقك ومنه قوله

(١) تفسير البغوي صفحة / ٦٤.

- تعالى:{شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط} أى ملازما لـه

والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب التى وصفها الله - تعالى - بأنها{أُمَّةٌ} قائمة أولئك الذين أسلموا منهم واستقاموا على أمر الله وأطاعوه فى السر والعلن، كعبد الله بن سلام، وأصحابه، والنجاشى ومن آمن معه من النصارى فهؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، ولم يفرقوا بين أنبياء الله ورسله، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم

ثم تابع القرآن حديثه عن أوصافهم الكريمة فقال:{يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَآءَ الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ}

وقوله:{يَتْلُونَ} من التلاوة وهى القراءة، وأصل الكلمة من الاتباع، فكأن التلاوة هى اتباع اللفظ اللفظ

والمراد بآيات الله هنا: ما أنزله على رسوله محمد ﷺ من قرآن

وقوله:{آنَآءَ الليل} أى أوقاته وساعاته والآناء جمع إنىَ - كمعاً وأمعاء - أو جمع أنىَ - كعصاً - أو جمع أنىَ وإنى وإنو فالهمزة فى آناء منقلبة عن ياء كرداء: أو عن واو ككساء

والمراد بالسجود فى قوله:{وَهُمْ يَسْجُدُونَ} الصلاة لأن السجود لا قراءة فيه وإنما فيه التسبيح، فقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «**ألا إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم**»

والمعنى: ليس أهل الكتاب متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح، بل منهم قوم سلموا منها، وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه، وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله - تعالى - آناء الليل وأطراف النهار

قال الآلوسى ما ملخصه: والمراد بصلاتهم هذه: التهجد - على ما ذهب إليه البعض - وعلل هذا بأنه أدخل فى المدح وفيه تتيسر لهم التلاوة، لأنها فى المكتوبة وظيفة الإمام

والذى عليه بعض السلف أنها صلاة العتمة واستدل عليه بما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «**أما إنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب**» وعبر عن الصلاة بالسجود، لأنه أدل على كمال الخضوع والصلاة تسمى سجوداً وسجدة، وركوعاً وركعة

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال:**{يُؤْمِنُونَ بالله}** والمراد بهذا: الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به على الوجه المقبول الذى نطق به الشرع، وجاء به محمد ﷺ

{واليوم الآخر} أى ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار وقوله:**{وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر}** إشعار بأنهم لم يكتفوا بتكميل أنفسهم بالفضائل التى من أشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، والإكثار من إقامة الصلاة ومن تلاوة القرآن، بل أضافوا إلى ذلك إرشاد غيرهم إلى الخير الذى أمر الله به، ونهيه عن الباطل الذى يبغضه الله، وتستنكره العقول السليمة

وقوله - تعالى:**{وَيُسَارِعُونَ فِي الخيرات}** أى يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات التى ترفع درجاتهم عند الله - بدون تردد أو تقصير

وقال - سبحانه:**{وَيُسَارِعُونَ فِي الخيرات}** ولم يقل إلى الخيرات للإشعار بأنهم مستقرون فى كل أعمالهم فى طريق الخير، فهم ينتقلون من خيرٍ إلى خير فى دائرةٍ واحدةٍ هى دائرة الخير، ينتقلون بين زواياها وأقطارها ولا يخرجون منها فهم لا ينتقلون مسارعين من شر إلى خير وإنما ينتقلون مسارعين من خير إلى خير وهذا هو سر التعبير بفى المفيدة للظرفية

والمسارعة فى الخير هى فرط الرغبة فيه، لأن من رغب في الأمر يسارع فى توليه وفى القيام به، واختيار صيغة المفاعلة " يسارعون " للمبالغة فى سرعة نهوضهم لهذا العمل الجامع لفنون الخير، وألوان البر

قال صاحب الكشاف وقوله:**{يَتْلُونَ}** و**{يُؤْمِنُونَ}** في محل الرفع صفتان لأمة أى: قائمة تالون مؤمنون وصفهم بخصائص ما كانت فى اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان، لإشراكهم به عزيرا، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض: ومن الإيمان باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته

ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهم كانوا مداهنين ومن المسارعة فى الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها "

واسم الإشارة فى قوله:**{وأولئك مِنَ الصالحين}** يعود إلى الموصوفين بتلك الصفات

السابقة من تلاوة الكتاب ومن إيمان بالله واليوم الآخر

أى وأولئك المصوفون بتلك الصفات الجليلة الشأن من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم، واستحقوا ثناءه عليهم

وفى التعبير بقوله:**{مِنَ الصالحين}** إشارة إلى أنهم بهذه المزايا وتلك الصفات، قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله - تعالى - ووصفهم بأن أكثرهم من الفاسقين

فهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين

قال الفخر الرازى: واعلم أن وصفهم بالصلاح فى غاية المدح، ويدل عليه القرآن والمعقول أما القرآن، فهو أن الله - تعالى - مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء، فقال بعد ذكر إدريس وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم:**{وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين}** وذكر حكاية عن سليمان أنه قال: " وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين " وأما المعقول، فهو أن الصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغى أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك فى العقائد أو فى الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغى أن يكون فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالا على أكمل الدرجات

ثم بين - سبحانه - أنه لن يضيع شيئا مما قدموه من أعمال صالحة، بل سيكافئهم على ذلك بما هو أفضل وأبقى فقال:**{وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ}** أى أن هؤلاء الذين وصفهم بتلك الصفات الطيبة لن يضيع الله شيئا مما قدموه من عمل صالح، وإنما سيجازيهم بما هم أهله من ثوابٍ جزيلٍ، وأجرٍ كبيرٍ بدون أى نقصان أو حرمان

و**{وَمَا}** فى قوله:**{وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ}** شرطية وفعل الشرط قوله:**{يَفْعَلُواْ}** وجوابه قوله:**{فَلَنْ يُكْفَرُوهُ}**

و**{مِنْ}** فى قوله:**{مِنْ خَيْرٍ}** لتأكيد العموم أى ما يفعلوا من أى خير سواء أكان قليلا أم كثيرا فلن يحرموا ثوابه

وأصل الكفر: الستر والتغطية وقد صح تعدية الفعل كفر إلى مفعولين لأنه هنا بمعنى حرم

ولذا قال صاحب الكشاف: فإن قلت لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان

إلا إلى واحد؟ تقول: شكر النعمة وكفرها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان فكأنه قيل: فلن يحرموه بمعنى: فلن يحرموا جزاءه "

وقوله:{والله عَلِيمٌ بالمتقين} تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى هو - سبحانه - عليم بأحوال عباده وسيجازى المتقين بما يستحقون من ثواب، وسيجازى الكافرين بما يستحقون من عقاب

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة

وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق وأنهم يتلون آيات آناء الليل وأطراف النهار، وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله فى صلواتهم وسجودهم، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وأنهم يأمرون بالمعروف، وأنهم ينهون عن المنكر وأنهم يسارعون فى الخيرات، وأنهم من الصالحين

ثم بشرهم - سبحانه - بعد وصفهم بهذه الصفات الكريمة بأن ما يقدموه من خير فلن يحرموا ثوابه، لأنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملا

الحديث المؤثر عن أحوال المؤمنين من أهل الكتاب وبيان ما أعده الله لهم من، أتبعه بالحديث عن الكافرين وعن سوء عاقبتهم وعن أهم الأسباب التى أدت إلى كفرهم وفسوقهم فقال - تعالى:{إِنَّ الذين كَفَرُواْ}[1]

{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [2]

القول في تأويل قوله:{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا} قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية

فقال بعضهم: عنى بها أصحمة النجاشي، وفيه أنزلت[3]

(١) سيد طنطاوي صفحة / ٦٤.
(٢) ال عمران: ١٩٩.
(٣) الطبري: ٧٦.

يخبرُ تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه،**{لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا}** أي: لا يكتمون بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى وقد قال تعالى في سورة القصص:**{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا}**[1]، وقال تعالى:**{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** [2]

وقال:**{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}** [3]، وقال تعالى:**{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}**[4]

وقال تعالى:**{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا}**[5]، وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلا كما وجد في عبد الله ابن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عَشْرَةَ أنفُس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى:

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}[6]، وهكذا قال هاهنا:**{أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}**

(١) القصص: ٥٢ - ٥٤.
(٢) البقرة: ١٢١.
(٣) الأعراف: ١٥٩.
(٤) آل عمران: ١١٣.
(٥) الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩.
(٦) المائدة: ٨٢ - ٨٥.

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، لمّا قرأ سورة{كهيعص} بحضرة النجاشي ملك الحبشة، وعنده البطاركة والقساوسة بَكَى وبَكَوْا معه، حتى أخْضَبُوا لِحَاهُم

وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاه النبي ﷺ إلى أصحابه، وقال: «**إن أخًا لكم بالحبشة قد مات فصَلُّوا عليه**» فخرج بهم إلى الصحراء، فَصفَّهم، وصلّى عليه [1]

وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما تُوُفي النجاشي قال رسولُ الله ﷺ : «**استغفروا لأخيكم**» فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لِعِلْج مات بأرض الحبشة فنزلت:{**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ**} [2]

* * * * *

المطلب الثالث:

تعنت اليهود

{**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**} [3]

ساق ابن جرير بسنده: قال ابن جُرَيج: سألوه أن ينزل عليهم صحفا من الله مكتوبة

(١) صحيح البخاري برقم (١٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٩٥٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه١.
(٢) ابن كثير صفحة / ٧٦.
(٣) النساء: ١٥٣ - ١٥٩.

إلى فلان وفلان، بتصديقه فيما جاءهم به وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفارُ قريش قبلهم نظير ذلك، كما هو مذكور في سورة "سبحان":{وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا}(١)

ولهذا قال تعالى:{فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} أي: بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم وهذا مفسر في سورة "البقرة" حيث يقول تعالى:{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(٢)

وقوله تعالى:{ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ} أي: من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى، عليه السلام، في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليمّ، فما جاوزوه إلا يسيرًا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى:{اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٣)

ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة "الأعراف"، وفي سورة "طه" بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله، عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه: أن يقتُلَ من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل يقتل بعضهم بعضا ثم أحياهم الله، عز وجل، فقال الله عز وجل:{فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا}

ثم قال تعالى:{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ} وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى، عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلا ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى:{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}(٤)

(١) الإسراء: ٩٠ - ٩٣.
(٢) البقرة: ٥٥، ٥٦.
(٣) الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩.
(٤) الأعراف: ١٧١.

{وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} أي: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجدا، وهم يقولون: حطة أي: اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد وتحولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة

{وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ} أي: وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرّم الله عليهم، ما دام مشروعًا لهم**{وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}** أي: شديدا، فخالفوا وعَصَوْا وتحيلوا على ارتكاب مناهى الله، عز وجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله:**{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ}**[1]، وسيأتي حديث صفوان بن عسال، في سورة "سبحان" عند قوله:**{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}**[2]، وفيه: "وعليكم - خاصة يهود - أن لا تعدوا في السبت"

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا،وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا،بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}[3]

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أي: حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على أيدي الأنبياء، عليهم السلام

قوله:**{وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ}** وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمّا غفيرًا من الأنبياء بغير حق عليهم السلام

وقولهم:**{قُلُوبُنَا غُلْفٌ}** قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة، والسّدّي، وقتادة، وغير واحد: أي في غطاء وهذا كقول المشركين:**{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ**

(١) الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦.
(٢) الإسراء: ١٠١.
(٣) النساء: ١٥٥ - ١٥٩.

مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}[1] وقيل: معناه أنهم ادعَوْا أن قلوبهم غُلف للعلم، أي: أوعية للعلم قد حوته وحصلته رواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس

قال الله تعالى:**{بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}** فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول؛ لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله تعالى بل هو مطبوع عليها بكفرهم وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادَّعَوْه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة

{فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا} أي: مَرَدت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان

{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "يعني أنهم رموها بالزنا" وكذا قال السدي، وجُوَيْبِر، ومحمد بن إسحاق وغير واحد وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك - زاد بعضهم: وهي حائض - فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة

وقولهم:**{إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ}** أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين:**{يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}**[2]

وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرًا ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشاهَدُ طيرانه بإذن الله، عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسَعَوْا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى، عليه السلام، لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركًا من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان -

(١) فصلت: ٥.
(٢) الحجر: ٦.

وأنهوا إليه: أن ببيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه عن الناس فلما وصل الكتاب امتثل مُتَولِّي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى، عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثنا عشر أو ثلاثة عشر - وقيل: سبعة عشر نفرًا - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصروه هنالك فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم قال لأصحابه: أيكم يُلْقَى عليه شبهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتَدَب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يَنْتَدبُ إلا ذلك الشاب - فقال: أنت هو - وألقى اللهُ عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو

وفُتحَت رَوْزَنَة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سِنةٌ من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى:**{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}**(١)

فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها، والله أعلم

وهذا كله من امتحان الله عباده؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات، فقال تعالى - وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذي يعلم السر في السموات والأرض العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون -:

{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} أي: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال:**{وَإِنَّ الَّذِينَ**

(١) آل عمران: ٥٥.

اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} يعني بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سَلَّمه من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعُر ولهذا قال:**{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}** أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين**{بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}** أي منيع الجناب لا يرام جنابه، ولا يضام من لاذ ببابه**{حَكِيمًا}** أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم

وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدًا ﷺ (١)

القول في تأويل قوله:**{وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}**

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به"، يعني: بعيسى "قبل موته"، يعني: قبل موت عيسى يوجِّه ذلك إلى أنّ جميعهم يصدِّقون به إذا نزل لقتل الدجّال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفيّة، دين إبراهيم ﷺ (٢)

عن ابن عباس قوله: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته"، يعني: أنه سيدرك أناسٌ من أهل الكتاب حين يبعث عيسى، فيؤمنون به، "ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا"(٣)

ثم سجل عليهم بعد ذلك رذيلة سابعة ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد فى كل زمان ومكان فقال:**{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ}** والمسيح: لقلب تشريف وتكريم لعيسى - عليه

(١) الطبري / ١٠٢.
(٢) وثقه الطبري بإسناده عن ابن عباس.
(٣) الطبري / ١٠٣.

السلام - قيل: لقب بذلك لأنه ممسوح من كل خلق ذميم وقيل: لأنه مسح بالبركة كما فى قولـه - تعالى:{وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ} وقيل لأن الله مسح عنه الذنوب

أى: وبسبب قولهم على سبيل التبجح والتفاخر إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، لعنهم الله وغضب عليهم، كما لعنهم وغضب عليهم - أيضا - بسبب جرائمهم السابقة

وهذا القول الذى صدر عنهم هو فى ذاته جريمة؛ لأنهم قالوه على سبيل التبجح والتفاخر لقتلهم - فى زعمهم - نبيا من أنبياء الله، ورسولاً من أولى العزم من الرسل

وقولهم هذا وإن كان يخالف الحقيقة والواقع، إلا أنه يدل على أنهم أرادوا قتله فعلاً، وسلكوا كل السبل لبلوغ غايتهم الدنيئة، فدسوا عليه عند الرومان، ووصفوه بالدجل والشعوذة، وحاولوا أن يسلموه لأعدائه ليصلبوه، بل زعموا أنهم أسلموا فعلا لهم، ولكن الله - تعالى - خيب سعيهم، وأبطل مكرهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، حيث نجى عيسى - عليه السلام - من شرورهم، ورفعه إليه دون أن يمسه سوء منهم

ولا شك أن صدر عن اليهود فى حق عيسى - عليه السلام - من محاولة قتله، واتخاذ كل وسيلة لتنفيذ غايتهم، ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه، لا شك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم؛ لأنه من المقرر فى الشرائع والقوانين أن من شرع فى ارتكاب من الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته، فإنه يعد من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد

واليهود قد اتخذوا كافة الطرق لقتل عيسى - عليه السلام - كما بينا، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون لأسباب خارجة عن طاقتهم ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم النكراء لما تقاعسوا عنها، ولأسرعوا فى تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم فى تفكيره، وفى نيته، وفى شروعه الأثيم، لارتكاب ما نهى الله عنه

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كانوا كافرين بعيسى - عليه السلام - أعداء لـه، عامدين لقتله، يسمونه الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فيكف قالوا:{إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله}؟

قلت: قالوه على وجه الاستهزاء، كقول فرعون:{إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم، رفعا

لعيسى عما كانوا يذكرونه به، وتعظيماً لما أرادوا بمثله كقوله:{لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم * الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً} وقوله - تعالى:{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ} رد على مزاعمهم الكاذبة، وأقاويلهم الباطلة التى تفاخروا بها بأنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - أى: إن ما قاله اليهود متفاخرين به، وهو زعمهم أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام -، هو من باب أكاذيبهم المعروفة عنهم؛ فإنهم ما قتلوه، وما صلبوه ولكن الحق أنهم قتلوا رجلا آخر يشبه عيسى - عليه السلام - فى الخلقة فظنوه إياه وقتلوه وصلبوه، ثم قالوا إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله

وقال فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف: قوله:{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ} زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فأكذبهم الله - تعالى - فى ذلك وقال:{ولكن شُبِّهَ لَهُمْ} أى: شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح فلما دخلوا عليه ليقتلوه - أى ليقتلوا المسيح - وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه، يظنونه المسيح وما هو فى الواقع، إذ قد رفع الله عيسى إلى السماء، ونجاه من شر الأعداء

وقيل لمعنى: ولكن التبس عليهم الأمر حيث ظنوا المقتول عيسى كما أوهم بذلك أحبارهم

هذا، وللمفسرين فى بيان كيفية التشبيه لهم وجوه من أهمها اثنان:

الأول: أن الله - تعالى - ألقى شبه عيسى - عليه السلام - على أحد الذين خانوه ودبروا قتله وهو (يهوذا الإسخريوطى) الذى كان عينا وجاسوسا على المسيح، والذى أرشد الجند الذين أرادوا قتله إلى مكانه، وقال لهم: من أقبله أمامكم يكون هو المسيح، فاقبضوا عليه لتقتلوه، فدخل بين عيسى ليدلهم عليه ليقتلوه فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى

وهذا الوجه قد جاء مفصلاً فى بعض الأناجيل وأشار إليه الآلوسى بقوله: كان رجلٌ من الحواريين ينافس عيسى - عليه السلام - فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه، وأخذ على ذلك ثلاثين درهما، فدخل بيت عيسى - عليه السلام - فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى

الثانى: أن الله - تعالى - ألقى شبه المسيح على أحد تلاميذه المخلصين حينا أجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه سيرفعه إليه، فقال لأصحابه: «**أيكم يرضى أن يلقى عليه**

شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟» فقال رجل منهم أنا فألقى الله صورة عيسى عليه، فقتل ذلك الرجل وصلب

وقد أطنب الإمام ابن كثير فى ذكر الروايات التى تؤيد هذا الوجه، ومنها قوله: عن ابن عباس قال: لما أراد الله - تعالى - أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين فقال لهم: إن منكم من يكفر بعدى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى

قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى، ويكون معى فى درجتى؟

فقال شاب من أحدثهم سنا فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقال ذلك الشاب فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال: أنا

فقال له عيسى، هو أنت ذاك فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس، ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية، وقال غير واحد من السلف: أنه قال لهم أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى فى الجنة

والذى يجب اعتقاده بنص القرآن الكريم أن عيسى - عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وإنما رفعه الله إليهم، ونجاه من مكر أعدائه، أما الذى قتل وصلب فهو شخص سواه

ثم قال - تعالى:**{وَإِنَّ الذين اختلفوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن}** أى: وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى شك دائم من حقيقة أمره أى: فى حيرة وتردد، ليس عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه، أو فى شأن قتله، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذى لا تثبت به حجة ولا يقوم عليه برهان

ولقد اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى اختلافا كبيراً فمنهم من زعم أنه ابن الله وادعى أن فى عيسى عنصرا إلهياً مع العنصر الإنسانى وأن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهى

ومنهم من قال: إن مريم ولدت العنصرين معا

ولقد اختلفوا فى أمر قتله فقال بعض اليهود: إنه كان كاذبا فقتلناه قتلا حقيقا، وتردد آخرون فقالوا: إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟

وقال آخرون: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا

إلى غير ذلك من خلافاتهم التى لا تنتهى حول حقيقة عيسى وحول مسألة قتله وصلبه

فالمراد بالموصول فى قولـه:**{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا}** مـا يعم اليهود والنصـارى جميعـا والضمير فى قولـه: (فيه) يعود إلى عيسى - عليه السلام

وقولـه:**{مِّنْهُ}** جار مجرور متعلق بمحذوف صفة الشك

قال الآلوسى: وأصل الشك أن يستعمل فى تساوى الطرفين، وقد يستعمل فى لازم معناه وهو التردد مطلقا، وإن لم يترجح أحد طرفيه وهو المراد هنا ولذا أكده بنفى العلم الشامل لذلك أيضا بقولـه - سبحانه:**{مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن}**

وقولـه:**{إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ}** الراجح أن الاستثناء فيه منقطع، أى مـالهم بـه من علم لكنهم يتبعون الظن

وقولـه:**{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً}** تأكيد لنجـاة عيسـى ممـا يزعمونه من قتلهم لـه، وبيان لما أكرمه الله به من رعاية وتشريف

واليقين: هو العلم الجازم الذى لا يحتمل الشك والضمير فى قولـه:**{وَمَا قَتَلُوهُ}** لعيسى

وقولـه:**{يَقِيناً}** ذكر النحاة فى إعرابه وجوها من أشهرها: أنه نعت لمصدر محذوف مأخوذ من لفظ قتلوه: أى: ما قتلوه قتلاً يقيناً، أى متيقنين معه من أن المقتول عيسى عليه السلام - وهذا فيه ترشيح للاختلاف والشك الذى اعتراهم

أو هو حال مؤكدة لنفى القتل أى انتفى قتلهم إياه إنتفاء يقينـاً فاليقين منصـب علـى النفى أى: أن نفى كونه قد قتل أمر متيقن مؤكد مجزوم بـه، وليس ظنـا كظنكم أو وهماً كوهمكم يا معشر أهل الكتاب

وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك بقولـه: قولـه:**{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً}** أى: وما قتلوه قتلا يقينا أو ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك فى قولهم:**{إِنَّا قَتَلْنَا المسيح}** أو يجعل**{يَقِيناً}** تأكيداً لقولـه:**{وَمَا قَتَلُوهُ}** كقولك: ما قتلوه حقاً أى حق انتفاء قتله حقا

والمعنى: أن اليهود قد زعموا أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - وزعمهم هذا أبعد ما يكون عن الحق والصواب، لأن الحق المتيقن فى هذه المسألة أنهم لم يقتلوه، فقد نجاه الله من مكرهم، ورفع عيسى إليه، وكان الله**{عَزِيزاً}** أى منيع الجناب، لا يلجأ إليه أحدٌ إلا أعزه وحماه**{حَكِيماً}** فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور

هذا، وجمهور العلماء على أن الله - تعالى - رفع عيسى إليه بجسده وروحه لا بروحه فقط قال بعض العلماء: والجمهور على أن عيسى رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء والخصوصية لـه - عليه السلام - هى فى رفعه بجسده وبقائه فيها إلى الأمر المقدر لـه

وفى بعضهم الرفع فى قولـه - تعالى:{بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ} بأنه رفع بالروح فقط

وقد بسطنا القول فى هذه المسألة عند تفسيرنا لسورة آل عمران فى قولـه تعالى:{إِذْ قَالَ الله ياعيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} و{إِن} هنا نافية بمعنى ما النافية، والمخبر عنه محذوف قامت صفته مقامه

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهان:

الأول: أن الضمير فى قولـه:{قَبْلَ مَوْتِهِ} يعود إلى عيسى - عليه السلام - وعليه يكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن بعيسى - عند نزوله فى آخر الزمان - حق الإيمان،{قَبْلَ مَوْتِهِ} أى: قبل موت عيسى،{وَيَوْمَ القيامة يَكُونُ} عيسى - عليه السلام:{عَلَيْهِمْ} أى: على أهل الكتاب{شَهِيداً} فيشهد عليهم بأنه قد أمرهم بعبادة الله وحده، وأنه قد نهاهم عن الإشراك معه آلهة أخرى

وقد انتصر لهذا الاتجاه كثير من المفسرين وعلى رأسهم شيخهم ابن جرير فقد قال - بعد سرد الأقوال فى الآية -: وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير بقولـه: ولا شك أن الذى قاله ابن جرير هو الصحيح لأن المقصود من سياق الآيات، بطلان ما زعمته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وبطلان تسليم من سلم لهم من النصارى الجهالة ذلك فقد أخبر الله - تعالى - أن الأمر لم يكن كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ثم إن الله - تعالى - رفع إليه عيسى، وإنه باق حى، وإنه سينزل قبل يوم القيامة

ثم عقد ابن كثير فصلاً عنونه بقولـه: ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء فى آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك به

ثم ساق ابن كثير جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها: ما رواه الشيخان عن أبى

هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «**والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها**»

ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم:{وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكتاب إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}

أما الاتجاه الثانى: فيرى أصحابه أن الضمير فى قوله:{قَبْلَ مَوْتِهِ} يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقوله:{وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكتاب} وعليه يكون المعنى: وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته أى قبل موت هذا الكتابى، لأنه عند ساعة الاحتضار يتجلى له الحق، ويتبين له صحة ما كان ينكره ويجحده فيؤمن بعيسى - عليه السلام - ويشهد بأنه عبد الله ورسوله، وأن الله واحد لا شريك له، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه، لأنه جاء فى وقت الغرغرة، وهو وقت لا ينفع فيه الإيمان

قالوا: ويؤيد هذا التأويل قراءة أبى:{إلا ليؤمنن به قبل موتهم} - بضم النون وبميم الجمع

وقد صدر صاحب الكشاف كلامه بذكر هذا التأويل فقال ما ملخصه: والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله يعنى: إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه

فإن قلت: ما فائدة الإخبار بعيسى قبل موتهم؟ قلت فائدته: الوعدي، وليكون عملهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأن ذلك لا ينفعهم، بعثا لهم وتنبيها على معاجلة الإيمان به فى وقت الانتفاع به، وليكون إلزاما للحجة لهم

وقيل: الضميران لعيسى بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله

والذى نراه أولى أنه لا تعارض بين التأويلين فإن كلا منهما حق فى ذاته

فكل كتابى عندما تحضره الوفاة يعلم أن عيسى كان صادقاً فى نبوته، وأنه عبد الله، وأنه قد دعا الناس إلى عبادة الله وحده وكذلك كل كتابى يشهد نزول عيسى فى آخر الزمان سيؤمن به ويتبعه ويشهد بأنه صادق فيما بلغه عن ربه [1]

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة /١٠٢.

المطلب الرابع:
بعض أَوصاف اليهود

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلاَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لاَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}[1]

يحكي القرآن الكريم قول اليهود الغبي اللئيم وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك وقد قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة، وقالوا يد الله مغلولة يعللون بذلك بخلهم ؛ فالله بزعمهم لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل فكيف ينفقون وقد بلغ من غلظ حسهم وجلافة قلوبهم ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر ؛ فاختاروا لفظا أشد وقاحة وتهجما وكفرا فقالوا يد الله مغلولة ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا وكذلك كانوا فهم أبخل خلق الله بمال ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ؛ ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان شاهدة باليد المبسوطة والفضل الغامر والعطاء الجزيل ناطقة بكل لسان ولكن يهود لا تراها ؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم وبالكنود وبالجحود وبالبذاءة حتى في حق الله ويحدث الله رسوله عما سيبدو من القوم وعما سيحل بهم بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة ؛ وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرًا فبسبب من الحقد والحسد

(١) المائدة: ٦٤ - ٦٦.

وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله سيزيد الكثيرون منهم طغيانا وكفرا لأنهم وقد أبوا الإيمان لا بد أن يشتطوا في الجانب المقابل ؛ ولا بد أن يزيدوا تبجحاً ونكراً وطغياناً وكفراً فيكون الرسول رحمة للمؤمنين ووبالا على المنكرين ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادي والتباغض فيما بينهم ؛ ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيره تلهبا ؛ ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفاها الله، وما تزال طوائف اليهود متعادية وإن بدا في هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند ؛ وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح ولكن ينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة ففي خلال ألف وثلاثمائة عام بل من قبل الإسلام واليهود في شحناء وفي ذل كذلك وتشرد ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه مهما تقم حولهم الأسناد ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة التي يتحقق لها وعد الله فأين هي العصبة المؤمنة اليوم التي تتلقى وعد الله وتقف ستارا لقدر الله ويحقق الله بها في الأرض ما يشاء

ويوم تفيء الأمة المسلمة إلى الإسلام تؤمن به على حقيقته ؛ وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله واليهود يعرفون هذا ومن ثم يسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد ؛ ويصبون كل ما في أيديهم من بطش وفتك على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض ويضربون لا بأيديهم ولكن بأيدي عملائهم ضربات وحشية منكرة ؛ لا ترعى في العصبة المؤمنة إلا ولا ذمة ولكن الله غالب على أمره ووعد الله لا بد أن يتحقق وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله إن هذا الشر والفساد الذي تمثله يهود لا بد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه ؛ فالله لا يحب الفساد في الأرض ؛ وما لا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يزيله ويعفي عليه ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين

الدرس السادس: أثر الإيمان وتطبيق شرع الله في الرخاء المعيشي وفي نهاية الدرس تجيء القاعدة الإيمانية الكبرى قاعدة أن إقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء لا افتراق بين دين ودنيا ولا افتراق بين دنيا وآخرة فهو منهج واحد للدنيا وللآخرة ؛ للدنيا وللدين

تجيء هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة بمناسبة الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله ؛ وأكلهم السحت ؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه لينالوا عرضا من أعراض هذه الأرض واتباع دين الله كان أجدى عليهم في الأرض والسماء وفي الدنيا والآخرة لو أنهم اختاروا الطريق**{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}**[1] إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم ؛ والعقل البشري والموازين البشرية والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج بإزاء هذا الأمر الخطير إن الله سبحانه يقول لأهل الكتاب ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم وهذا جزاء الآخرة وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل لصلحت حياتهم الدنيا ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ووفرة النتاج وحسن التوزيع وصلاح أمر الحياة ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها وكثير منهم ساء ما يعملون

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده وإن كان هو المقدم وهو الأدوم ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله:**{لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم}** وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة ؛ وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا وهذا المنهج

(١) المائدة: ٦٥، ٦٦.

ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب ولكنه كذلك وتبعا لذلك منهج حياة إنسانية واقعية يقام وتقام عليه الحياة وإقامته مع الإيمان والتقوى هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية وفيض الرزق ووفرة النتاج وحسن التوزيع حتى يأكل الناس جميعا في ظل هذا المنهج من فوقهم ومن تحت أرجلهم

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ؛ ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم بحيث أصبح الفرد العادي وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقين ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه ؛ وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ؛ ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا حقيقة إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله وعن منهجه للحياة اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع الدنيوية أن يتخلوا عن طريق الآخرة ؛ وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية ؛ والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف الذي يحض عليه الدين كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق ولا مرضية لله سبحانه ولكن تراها ضربة لازب ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة كلا إنها ليست ضربة لازب فالعداء بين الدنيا والآخرة ؛ والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا إنما هي عارض ناشىء من انحراف طارئ

إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة ؛ وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا وأن يكون

الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا ؛ وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضيه للناس فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة والخلافة عمل وإنتاج ووفرة ونماء وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم كما يقول الله في كتابه الكريم

إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله بإذن الله وفق شرط الله ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها بل الخامات والموارد الكونية كذلك هو الوفاء بوظيفة الخلافة ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة ؛ بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها الله له ؛ ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه كما يصور التعبير القرآني الجميل ووفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له عاصيا لله ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها وهو يقول للملائكة**{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}** وهو يقول كذلك للناس:**{وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ}** ومعطلاً لرزق الله الموهوب للعباد وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا والمنهج الإسلامي بهذا يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق فلا يفوت على الإنسان دنياه لينال آخرته ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه فهما ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج الله

فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة في المنهج الإسلامي لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج ؛ وأن يبتغي في العمل والإنتاج وجه الله فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون ولا يأكل من سحت ولا يحتجز

دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئا يملكه مع الاعتراف الكامل لـه بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض الله وما شرع والمنهج يسجل للفرد عمله في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات عبادة لله يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة

ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطاً أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ؛ ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مراتٍ بالصلاة وفي العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان وفي العمر كله بحج بيت الله وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة وهي قربى لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج الذي ينظم أمر الحياة كلها ويتولى شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق

وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا منفصلة عن شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم والقضاء والجهاد لإقرار منهج الله في الأرض وتقرير سلطانه في حياة الناس إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج المعين على أداء شطره الآخر وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله في الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض كما يعد الله الناس في هاتين الآيتين الكريمتين إن التصور الإسلامي وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه لا يقدم الحياة الآخرة بديلا من الحياة الدنيا ولا العكس إنما يقدمهما معا في طريق واحد وبجهد واحد ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل والتصور الإسلامي وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى بديلا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه ؛ بينما يدع الناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان فالعمل والإنتاج والتنمية والتحسين

في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي والمنهج الإسلامي فريضة الخلافة في الأرض والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس وهذه وتلك معا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معا

والطريق هو الطريق ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم والتي منها يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع لأنهما لا تجتمعان إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة وبين العبادة الروحية والإبداع المادي وبين النجاح في الحياة الدنيا والنجاح في الحياة الأخرى إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية إنما هو ضريبة بائسه فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج الله وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم في الحياة الدنيا فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشد وأنكى

إنهم يؤدونها قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه إذا هم آثروا إطراح الدين كله على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب ولا تطيق الفراغ والخواء وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية أو فلسفية أو فنية على الإطلاق لأنها جوعة النزعة إلى إله، وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في الله وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراته وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج الله وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني والسلوك الديني مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية وتتصور أو يصور لها أعداء البشرية أن الدين لله وأن الحياة للناس وأن

الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء لأنها لا تهتدي إلى منهج الله الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ؛ ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة بل ينسق ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة في فترة موقوتة إذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي ولا تقيم منهج الله في حياتها وهي موفورة الخيرات كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء إنه رخاء موقوت حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني

والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء وحافلاً بالأحقاد وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد الكظيمة وهو بلاء على رغم الرخاء وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعاً من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره إن عاجلاً أو آجلاً إلى تدمير الحياة المادية ذاتها

فالعمل والإنتاج والتوزيع كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم وبخاصة أشدها رخاء ماديا مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال

ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحا كافيا يلفت الأنظار وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة؛ في هذا العالم المضطرب؛ الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون ؛ فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي وليس هذا إلا مثلا للآخرين في فعل الافتراق بين

النشاط المادي والمنهج الرباني ؛ وافتراق الدنيا والآخرة وافتراق الدين والحياة ؛ أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس ؛ وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب ولكل جماعة من الناس أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة ؛ وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة فضلا على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ؛ ويرفع كل قيم الحياة ؛ ويقوم كل موازين الحياة فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي

وفي المنهج الإسلامي وكل شيء فيه يجيء تبعا له ومنبثقاً منه ومعتمداً عليه ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحياة كل أولئك ثمرته للإنسان وللحياة الإنسانية فالله سبحانه غني عن العالمين وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس وجعلها مناط العمل والنشاط ؛ ورد كل عمل وكل نشاط لا يقوم عليها وعده باطلاً لا يقبل وحابطاً لا يعيش وذاهبا مع الريح فليس هذا لأن الله سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة ولكن لأنه سبحانه يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج في الحديث القدسي عن أبى ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو**

أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله؛ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله فهي كلها لحسابنا نحن لحساب هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب، فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن، أولى بالشرط الذين يقولون إنهم مسلمون فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد وقد انتهى إليه كل دين قبله ؛ ولم يعد هناك دين يقبله الله غيره أو يقبل من أحد غيره فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة ؛ ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح وشرط الله قائم ؛ والطريق إليه معروف لو كانوا يعقلون

الوحدة السادسة: الموضوع: بيان كفر وانحراف وإفساد أهل الكتاب

مقدمة الوحدة تقرير نوع العلاقة بين الجماعة المسلمة وأهل الكتاب يمضي هذا الدرس في بيان حال أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكشف الانحراف فيما يعتقدون وكشف السوء فيما يصنعون ؛ في تاريخهم كله وبخاصة اليهود[1]

* * * * *

(١) الظلال /سيد قطب صفحة /١١٧.

المطلب الخامس:

علاقة أهل الكتاب برسلهم

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[1]

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ}: العهد الموثق الذي أخذه الله عليهم بواسطة أنبيائهم بأن يؤدوا ما كلفهم به من تكاليف وأن يتبعوا النبي ﷺ عند ظهوره

وقد أكد الله هذا الميثاق الذي أخذه عليهم بلام القسم وبقد المفيدة للتحقيق أي: بالله لقد أخذنا الميثاق على بني إسرائيل بأن يعبدوني ولا يشركون بي شيئاً، وبأن ينفذوا ما كلفتهم به من المأمورات والمنهيات والشرائع والأحكام

وقوله:**{وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلاً}** معطوف على**{أَخَذْنَا}** والتنكير في قوله:**{رُسُلاً}** للتكثير والتعظيم

أي: أخذنا العهد المؤكد عليهم بأن يسيروا على الطريق المستقيم، وأرسلنا إليهم رسلاً ذوي عدد كثير، لكي يتعهدوهم بالتبشير والإنذار، ولكي يرشدوهم إلى ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم

فأنت ترى أن الله - تعالى - مع أخذه الميثاق عليهم لم يتركهم هملا، بل أرسل إليهم الرسل ليعينوهم على تنفيذ ما جاء به

ولم يذكر - سبحانه - هنا موضوع هذا الميثاق، اكتفاء بذكره في مواطن أخرى كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - قبل ذلك في هذه السورة

(١) المائدة: ٧٠ - ٧٥.

{وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ الله إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصلاة وَآتَيْتُمُ الزكاة وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضاً حَسَناً}،

وقولــه:**{كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ}** بيـان لمـوقفهم الذميم من الميثاق الذي أخذ عليهم ومن الرسل الكرام الذين أرسلهم الله لهدايتهم وسعادتهم

أي: أخذنا الميثاق المؤكد عليهم، وأرسلنا إليهم رسلاً كثيرين لهدايتهم ولكنهم نقضوا الميثاق، وعصوا الرسل، فكانوا**{كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ}** لما لا تشتيه نفوسهم الشقية، وبمـا لا تميل إليه قلوبهم الردية، ناصبوه العداء؛ فكذبوا بعض الرسل، ولم يكتفوا مع البعض الآخر بالتكذيب بل أضافوا إليه القتل

ولقد كذب اليهود جميع الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ولم يؤمن بهم إلا قلة منهم وقتلوا من بين من قتلوا من الرسل بعد أن كذبهم: زكريا ويحيى، وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - كما حاولوا قتل رسول الله ﷺ إلا أن الله - تعالى - نجاهما من مكرهم وكيدهم

قـال صـاحب الكشـاف: وقولــه:**{كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ}** جملـة شـرطية وقعـت صـفة لقولــه:**{رُسُلاً}** والرابط محذوف: أي: رسول منهم**{بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ}** أي بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم

فإن قلت: أين جواب الشرط؟ قلت: هو محذوف يدل عليه**{فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ}** فكأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه

والتعبير بقولـه:**{كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ}** يدل على أن حال بني إسرائيل بالنسبة للرسل يدور بين أمرين أما التكذيب لهم، والاستهانة بتعاليمهم وإما أن يجمعوا مع التكذيب قتلهم وإزهاق أرواحهم الشريفة

فكأن التكذيب والقتل قد صار سجيتين لهم لا تختلفان في أي زمان ومع أي رسول، وذلك لأن لفظ: " كل " يدل على العموم " وما " مصدرية ظرفية دالة على الزمان، فكأنه - سبحانه - يقول في كل أوقات مجيء الرسل إليهم كذبوا ويقتلوا دون أن يفرقوا بين رسول ورسول أو بين زمان وزمان

وقال - سبحانه:**{بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ}** للمبالغة في ذمهم، إذ هوى النفس ميلها في الغالب إلى الشهوات التي لا تنبغي، والرسل ما أرسلهم الله - تعالى - إلا لهداية الأنفس،

وكفها عن شهواتها التي يؤدي الوقوع فيها إلى المفاسد

وبنو إسرائيل لا يكذبون الرسل، ويقتلونهم إلا لأنهم جاءهم بما يخالف هواهم، ويتعارض مع أنانيتهم وشرهم ومطامعهم الباطلة

وهكذا الأمم عندما تفسد عقولها؛ وتسيطر عليها الأطماع والشهوات، ترى الحسن قبيحا، وتحارب من يهديها إلى الرشاد حتى لكأنه عدو لها

وقدم - سبحانه - المفعول به في قوله:**{فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ}** للاهتمام بتفصيل أحوال بني إسرائيل السيئة، وبيان ما لقيه الرسل الكرام منهم

وعبر عن التكذيب بالفعل الماضي فقال:**{فَرِيقاً كَذَّبُواْ}** وعن القتل بالفعل المضارع فقال:**{وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ}** لحكاية الحال الماضية التي صدرت من أسلافهم بتصوير ما حصل في الماضي كأنه حاصل وقت التكلم، ولاستحضار جريمتهم البشعة في النفوس حتى لكأنها واقعة في الحال، وفي ذلك ما فيه من النعي عليهم والتوبيخ لهم والتعجيب من أحوالهم التي بلغت نهاية الشناعة والقبح

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنهم مع ما فعلوه مع رسلهم من التكذيب والقتل لم ينزجروا، ولم يندموا بلغ بهم الغرور والسفه أنهم ظنوا أن ما فعلوه شيئاً هينا وأنه لن يكون له أثر سيئ في حياتهم فقال - تعالى:**{وحسبوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}**

وقوله:**{وحسبوا}** معطوف على قوله:**{كَذَّبُواْ}** وهو من الحسبان بمعنى الظن: وقوله:**{فِتْنَةٌ}** من الفتن وهو إدخال الذهب في النار لتظهر جودته والمراد بها هنا: الشدائد والمحن والمصائب التي تنزل بالناس

والمعنى: إن بني إسرائيل قد أخذنا عليهم العهد المؤكد، وأرسلنا إليهم الرسل لهدايتهم، فكان حالهم أنهم كذبوا بعض الرسل، وقتلوا البعض الآخر ولم يكتفوا بهذا بل ظنوا - لسوء أعمالهم وفساد قلوبهم واستيلاء الغرور والتكبر على نفوسهم - أنهم لن يصيبهم بلاء ولا عقاب بتكذيبهم للرسل وقتلهم لهم فأمنوا عقاب الله وتمادوا في فنون البغي والفساد وعموا وصموا عن دلائل الهدى والرشاد التي جاء بها الرسل واشتملت عليها الكتب السماوية**{ثُمَّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ}** أي: قبل توبتهم بعد أن رجعوا عما كانوا عليه

من فساد{ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ} أي: ثم نكسوا على رؤوسهم مرة أخرى فعادوا إلى فسادهم وضلالهم وعدوانهم على هداتهم، إلا عددا قليلاً منهم بقي على إيمانه وتوبته فأنت ترى أن الآية الكريمة مسوقة لبيان فساد معتقدات بني إسرائيل وما جبلت عليه نفوسهم من جحود وغرور

حيث ارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم ومنكرات تقشعر لها الأبدان ومع كل ذلك حسبوا أن الله - تعالى - لا يعاقبهم عليها، لأنهم - كما يزعمون - أبناء الله وأحباؤه ثم إنهم بعد أن تاب الله عليهم نقضوا عهودهم معه وعادوا إلى أعمالهم عن الدين الذي جاءتهم به رسلهم وإلى صممهم عن الاستماع إلى الحق الذي ألقوه إليهم

وقوله:{أَلاَّ تَكُونَ} قراءة أبو عمر والكسائي وحمزة بضم النون على اعتبار " أن " هي المخففة من الثقيلة، وأصله أنه لا تكون فتنة فخفف{أن} وحذف ضمير الشأن - وهو اسمها - وحسبوا على هذه القراءة بمعنى علموا

وتعليق فعل الحسبان بها وهي للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم

وقراءة الباقون بفتح النون على اعتبار أن " أن " ناصبة لتكون وحسب على هذه القراءة على بابها من الشك والظن

وسد مسد مفعولي حسب على القراءتين ما اشتمل عليه الكلام من المسند والمسند إليه وهو{أن} وما في حيزها

وقوله:{فعموا} معطوف على{حسبوا} وجيء بالفاء التي للسببية للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها

أي أن عماهم عن الطريق القويم وصمم عن سماع الحق كان سببه ظنهم الفاسد، واعتقادهم الباطل أن ما ارتكبوه من قبائح لن يعاقبوا عليه في الدنيا

ومن بديع إيجاز القرآن الكريم أومأ إلى عدم اهتمامهم بمصيرهم في الآخرة ببيان أن ظنهم لن تنزل بهم مصائب في الدنيا بسبب مفاسدهم، هذا الظن هو الذي جعلهم يرتكبون ما يرتكبون من قبائح أما الآخرة فلا مكان لها في تفكيرهم، لأنهم قوم تعساء يحرصون على الدنيا حرصا شديداً دون أن يعيروا الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب أي اهتمام

وهذا شأن الأمم إذا ما استحوذ عليها الشيطان وتغلب عليها حب الشهوات وضعف

الوازع الديني في نفوس أفرادها إنهم في هذه الحالة يصير همهم مقصوراً على تدبير شؤون دنياهم، فإذا ما وجدوا فيها مأكلهم وشربهم وملذاتهم أغمضوا أعينهم عن آخرتهم، بل وربما استهانوا وتهكموا بمن يذكرهم بها فتكون نتيجة إيثارهم الدنيا على الآخرة الشقاء والتعاسة

وجيء بحرف العطف{ثم} المفيد للتراخي في قوله:{ثُمَّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ} للإشارة إلى أن قبول توبتهم كان بعد مفاسد عظيمة وقعت منهم أي: ثم تاب الله عليهم بعد أن كان منهم ما كان من منكرات وجرائم وإعراض عن الرشد والهدى

وقوله:{ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ} بيان لنقضهم لعهودهم مع الله، وارتكاسهم في الذنوب والخطايا والمنكرات ارتكاساً شديداً بحيث صاروا ليسوا أهلا لقبول التوبة منهم بعد ذلك

أي: بعد أن قبل الله توبتهم من جرائمهم المنكرة عادوا إلى الانتكاس مرة أخرى فوقعوا في الذنوب والجرائم بإصرار وعناد فأصابهم ما أصابهم من عقوبات لم يتب الله عليهم بعدها

وقوله:{كَثِيرٌ مِّنْهُمْ} بدل من الضمير في قوله:{عَمُواْ وَصَمُّواْ} وهذا الإبدال في غاية الحسن لأنه لو قال:{عَمُواْ وَصَمُّواْ} بدون هذا البدل لأوهم ذلك أنهم جميعا صاروا كذلك فلما قال:{كَثِيرٌ مِّنْهُمْ} دل على أن العمى والصمم قد حدث للكثيرين منهم، وهناك قلة منهم لم تنقض عهودها مع الله - تعالى - بل بقيت على إيمانها وصدق توبتها

وهذا - كما قلنا مرارا - من إنصاف القرآن للناس في أحكامه، ودقته في ألفاظه، واحتراسه فيما يصدر من أحكامه

وقوله:{والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُون} تذييل قصد به بطلان حسبانهم المذكور، والبصير مبالغة في المبصر وهو هنا بمعنى العليم بكل ما يكون منهم من أعمال سواء أبصرها الناس أم لم يبصروها

والمقصود من هذا الخبر لازم معناه، وهو الإنذار والتذكير بأن الله لا يخفى عليه شيء وسيحاسبهم على أعمالهم

أي: والله - تعالى - عليم بما يعملونه علم من يبصر كل شيء دون أن تخفى عليه خافية، والصمم الذي أصابهم بعد ذلك وقد أجمل الإمام الرازي كلامهم فقال:

والآية تدل على أن عماهم وصممهم عن الهداية إلى الحق حصل مرتين واختلف المفسرون في المراد بهاتين المرتين على وجوه:

الأول: المراد أنهم عموا وصموا في زمان زكريا ويحيى وعيسى - عليهم السلام - ثم تاب الله على بعضهم حيث وفق بعضهم للإيمان: ثم عموا وصموا كثير منهم في زمان محمد ﷺ بأن أنكروا نبوته، وقلة منهم هي التي آمنت به

الثاني: المراد أنهم عموا وصموا حيث عبدوا العجل، ثم تابوا عنه فتاب الله عليهم، ثم عموا وصموا كثير منهم بالتعنت وهو طلبهم رؤية الله جهرة

الثالث: ذكر الله - تعالى - في سورة الإسراء ما يجوز أن يكون تفسيرا لهذه الآية:**{وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً}** والذي نراه أن تحديد عماهم وصممهم وتوبتهم بزمان معين أو بجريمة أو جرائم معينة تابوا بعدها هذا التحديد غير مقنع

ولعل أحسن منه أن نقول: إن القرآن الكريم يصور ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة، وطبائع معوجة، ومن نقض للعهود والمواثيق فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضوها، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب دنيوي، فلما أصابهم العقاب الدنيوي كالقحط والوباء والهزائم بسبب مفاسدهم، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ورفع عنهم عقابه، فعادوا إلى عماهم وصممهم - إلا قليلا منهم - وارتكبوا ما ارتكبوا من منكرات بتصميم وتكرار فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها**{وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** وبعد أن بين - سبحانه - أنماطا من قبائح اليهود ومن صفاتهم الذميمة شرع في بيان قبائح النصارى وضلالاتهم وأرشدهم إلى طريق الحق والصواب، وحذرهم من السير في طريق الغواية والعناد فقال - تعالى:**{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ}**

قال الفخر الرازي: اعلم أنه - تعالى - لما استقصى الكلام مع اليهود، شرع ههنا في الكلام مع النصارى، فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم

وهذا هو قول اليعقوبية؛ لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلها، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله - تعالى - حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى

واللام في قولـه:{لَقَدْ كَفَرَ} واقعة جواباً لقسم مقدر

والمراد بالكفر: ستر الحق وإنكاره والانغماس في الباطل والضلال

أي: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورا: إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدر؛ لأنهم غالوا في إطراء عيسى وفي وضعه في غير موضعه كما غالت اليهود في الكفر به وفي وصفه بالأوصاف التي هو برئ منها

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى في الرد على من جعلوه إلها فقال:{وَقَالَ المسيح يابني إِسْرَائِيلَ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ}

أي: وقال المسيح مكذبا لمن وصفه بالألوهية: يا بني إسرائيل اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، فهو ربي الذي خلقني وتعهدني بالتربية والرعاية، وهو ربكم - أيضاً - الذي أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات

والواو في قولـه:{وَقَالَ المَسِيحُ} للحال والجملة حالية من الواو التي هي فاعل{قالوا}

أي: قالوا ما قالوا، والحال أن عيسى قد تبرأ مما قالوه وقال لبني إسرائيل حين إرساله إليهم: اعبدوا الله ربي وربكم

وقولـه:{رَبِّي وَرَبَّكُمْ} تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم المذكور؛ لأن عيسى لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية لله - تعالى - لأنه - سبحانه - هو الخلاق لـه ولهم ولكل شيء

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى محذراً من الإشراك فقال:{إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة وَمَأْوَاهُ النار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}

وهذه الجملة تعليل للأمر بعبادة الله وحده والضمير المقترن بإن ضمير الشأن والمراد بتحريم الجنة على المشرك: منعه من دخولها، لإشراكه مع الله آلهة أخرى

والمأوى: المكان الذي يأوى إليه الإنسان أي يرجع إليه ويستقر فيه

أي: قال المسيح لبني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، لأنه أي الحال والشأن{مَن يُشْرِكْ بالله} شيئاً في عبادته - سبحانه:{فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة} أي: منعه من دخولها،

بسبب شركه وكفره، وجعل{وَمَأْوَاهُ النَّارُ} أي: جعل مستقره ومكانه النار بدل الجنة{وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} ينصرونهم بأن ينقذوهم مما هم فيه من بلاء وشقاء مقيم

فالجملة الكريمة تحذير شديد من الإشراك بالله، وبيان لما سيؤول إليه حال المشركين من تعاسة وشقاء

وجمع - سبحانه - بين العقوبة السلبية للمشركين وهي حرمانهم من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهي استقرارهم في النار، للإشارة إلى عظيم جرمهم حيث أشركوا بالله، وتقولوا عليه الأقاويل الباطلة التي تدل على جهلهم وسفاهتهم

والمراد بالظالمين: المشركون الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم فتكون "أل" للعهد

ويجوز أن يراد بهم كل ظالم بسبب إشراكه وكفره ويدخل فيه هؤلاء دخولاً أولياً فتكون أل للجنس

وقال - سبحانه:{وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} بصيغة الجمع لكلمة " أنصار " وبالتأكيد بمن المفيدة للاستغراق، للإيذان بأنه إذا كان الظالمون لن يستطيع الأنصار مجتمعين أن ينصروهم فمن باب أولى لن يستطيع واحد أن ينصرهم

أي: ما لهم من أحد كائنا من كان أن ينقذهم من عقاب الله بأي طريقة من الطرق

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أن تكون من كلام عيسى الذي حكاه الله عنه - كما سبق أن ذكرنا - ويحتمل أن تكون من كلام الله - تعالى - وقد ساقها - سبحانه - لتأكيد ما قاله المسيح من أمره لقومه بعبادة الله وحده ولتقرير مضمونه المفيد للتحذير من الإشراك

وقوله - تعالى:{لَّقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} بيان لما قالته طائفة أخرى من طوائف النصارى الذين يتفرقون في العقائد والنحل، ويتجمعون على الكفر والضلال، فهم شيع شتى، وفرق متنابذة، كل شيعة منهم تكفر الأخرى وتعارضها في معتقداتها

قال الفخر الرازي ما ملخصه: في تفسير قول النصارى:{إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} طريقان:

الأول: أنهم أرادوا بذلك أن الله مريم وعيسى آلهة ثلاثة والذي يؤكد ذلك قوله - تعالى – للمسيح:{أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله} فقوله:{ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} أي: أحد ثلاثة آلهة أو واحد من ثلاثة آلهة

والطريق الثاني: أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة

أقانيم: أب، وابن وروح القدس وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة وعنوا بالأب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر أو اللبن فزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد

ثم قال الإمام الرازي: واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل فإن الثلاثة لا تكون واحداً والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى

وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين قالوا من النصارى: إن الله ثالث ثلاثة هم النسطورية والمرقوسية

ومعنى ثالث ثلاثة: واحد من ثلاثة أي: أحد هذه الأعداد مطلقا وليس الوصف بالثالث فقد ذكر النحاة أن اسم الفعل المصوغ من لفظ اثنين وشعرة وما بينهما لك أن تستعمله على وجوه منها: أن تستعمله مع أصله الذي صيغ هو منه، ليفيد أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لا غير

فتقول: رابع أربعة أي: واحد من أربعة وليس زائداً عليها، ويجب حينئذ إضافته إلى أصله

وقوله:**{وَمَا مِنْ إله إِلاَّ إله وَاحِدٌ}** بيان للاعتقاد الحق بعد ذكر الاعتقاد الباطل

وقد جاءت هذه الجملة بأقوى أساليب القصر وهو اشتمالها على " ما " و" إلا " مع تأكيد النفي بمن المفيدة لاستغراق النفي

والمعنى: لقد كفر الذين قالوا كذباً وزوراً: إن الله واحد من آلهة ثلاثة، والحق أنه ليس في هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله رب العالمين، الذي خلق الخلق بقدرته، ورباهم بنعمته وإليه وحده مرجعهم وإيابهم

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الضالين الذين قالوا ما قالوا من ضلال وكذب فقال - تعالى:**{وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله:**{لَقَدْ كَفَرَ}** والمراد بانتهائهم: رجوعهم عما هم عليه من ضلال وكفر

والمراد بقوله:**{عَمَّا يَقُولُونَ}**: أي عما يعتقدون وينطقون به من زور وبهتان

أي: لقد كفر أولئك الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة كفراً شديدا بينا والحق أنه ليس في الوجود سوى إله واحد مستحق للعبادة، وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالو بالتثليث عن عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاسدة ويعتصموا بعروة التوحيد **{لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ}** أي: ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب أليم

فالجملة الكريمة تحذير من الله - تعالى - لهم عن الاستمرار في هذا القول الكاذب والاعتقاد الفاسد الذي يتنافى مع العقول السليمة، والأفكار القويمة

وقوله: **{لَيَمَسَّنَّ}** جواب لقسم محذوف، وهو ساد مسد جواب الشرط المحذوف في قوله: **{وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ}** والتقدير: والله إن لم ينتهوا ليمسن

وأكد - سبحانه - وعيدهم بلام القسم في قوله: **{لَيَمَسَّنَّ}** رداً على اعتقادهم أنهم لا تمسهم النار، لأن صلب عيسى - في زعمهم - كان كفارة عن خطايا البشر

وعبر بالمس للإشارة إلى شدة ما يصيبهم من آلام: لأن المراد أن هذا العذاب الأليم يصيب جلدهم وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرة، كما قال - تعالى - في آية أخرى: **{كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب}** وقال - سبحانه: **{لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ}** بالتعبير بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هي سبب الحكم

ومن في قوله: **{منهم}** يصح أن تكون تبعيضية أي: ليمسن الذين استمروا على الكفر من هؤلاء النصارى عذاب أليم، لأن كثيرا منهم لم يستمروا على الكفر بل رجعوا عنه ودخلوا في دين الإسلام

ويصح أن تكون بيانية، وقد وضح ذلك صاحب الكشاف بقوله: ومن في قوله: **{لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ}** للبيان كالتي في قوله **{فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان}** والمعنى: ليمسن الذين كفروا من النصارى خاصة **{عَذَابٌ أَلِيمٌ}** أي نوع شديد الألم من العذاب كما تقول: أعطني عشرين من الثياب تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التي يجوز أن يتناولها عشرون

وبعد هذا الترهيب الشديد للكافرين من العذاب الأليم، فتح لهم - سبحانه - باب رحمته، حيث رغبهم في الإيمان، وأنكر عليهم تقاعسهم عنه بعد أن ثبت بطلان ما هم

عليه من عقائد فقال - تعالى:{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إلى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ}

والاستفهام هنا يتضمن حضهم على التوبة والرجوع إلى الحق وتوبيخهم على ما كان منهم من ضلال والتعجيب من استمرارهم على كفرهم وعقائدهم الفاسدة التي لا يقبلها عقل سليم، ولا تصور قويم

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام أي: أيسمعون ما يسمعون من الحق الذي يزهق باطلهم ومن النذر التي ترقق القلوب لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى الله وطلب مغفرته، والحال أنه - سبحانه - عظيم المغفرة واسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا

إن إصرارهم على كفرهم بعد تفنيده وإبطاله، وبعد تحذيرهم من سوء عاقبة الكافرين ليدل على أنهم قوم ضالون خاسرون يستحقون أن يكونوا محل عجب الناس وإهمالهم

قال أبو السعود: وقوله:{والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} جملة حالية من فاعل{وَيَسْتَغْفِرُونَهُ} مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار

أي: والحال أن الله: - تعالى - مبالغ في المغفرة فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله

وقال ابن كثير: هذا من كرمه - تعالى - وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة فكل من تاب إليه تاب عليه كما قال:{والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فيغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى عليه السلام - وحقيقة أمه مريم حتى يزيل عن ساحتهما ما افتراه عليهما المفترون فقال - تعالى:{مَّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام}

وقوله:{صديقة} صيغة مبالغة في التمسك بفضيلة الصدق مثل شريب ومسيك مبالغة في الشرب والمسك

قال الراغب: والصديق من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لم يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يأتي منه الكذب لتعوده الصدق وقيل، لمن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله قال - تعالى:{فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين}

فالصديقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة

والمعنى: إن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة قد قالوا منكرا وزورا، إذ ليس الألوهية إلا لله وحده وليس المسيح عيسى ابن مريم سوى بشر من البشر ورسول مثل الرسل الذين سبقوه كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعي واحد منهم الألوهية وأما أم عيسى مريم فما هي إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصدق مع خالقها - عز وجل - أو التصديق له في سائر أمورها وهما - أي عيسى وأمه مريم - عبدان من عباد الله كانا يأكلان الطعام، ويشربان الشراب ويتصرفان كما يتصرف سائر البشر فكيف ساغ لكم - يا معشر النصارى - أن تصفوهما بأنهما إلهين مع أن طبيعتهما الظاهرة أمامكم تتنافى تنافياً تاماً مع صفات الألوهية: إن وصفكم لهما بالألوهية لدليل واضح على فساد عقولكم وضلال تفكيركم، وعظيم جهلكم

وقوله:**{مَّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ}** جملة مشتملة على قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافي، أي أن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها وهي الألوهية فالقصر قصر قلب لرد اعتقاد النصارى في عيسى أنه الله، أو أنه جزء من الله أو أنه أحد آلهة ثلاثة

وقوله:**{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل}** صفة للرسول وهو عيسى أريد بها بيان أنه مساو للرسل الكرام الذين سبقوه في تبليغ رسالة الله إلى الناس؛ وأنه ليس بدعا في هذا الوصف وإذا فلا شبهة للذين زعموا أنه إله " لأنه لم يجئ بشيء زائد على ما جاء به الرسل "

وقوله:**{وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}** معطوف على قوله:**{مَّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ}** والقصد من وصف مريم بذلك مدحها والثناء عليها، ونفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك، فهي ليست إلها كما أنها ليست رسولا

ولذا قال ابن كثير: دلت الآية على أن مريم ليست بنبية - كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم عيسى ونبوة أم موسى - استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله:**{وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ}** والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال - قال تعالى:**{وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى}** وقوله:**{كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام}** جملة مستأنفة لبيان خواصهما الآدمية بعد بيان منزلتهما السامية عند الله - تعالى -

وقد اختيرت هذه الصفة لهما من بين صفات كثيرة كالمشرب والملبس لأنها صفة واضحة ظاهرة للناس، ودالة على احتياجهما لغيرهما في مطلب حياتهما، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون إلها

وقال صاحب الكشاف: لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض، لم يكن إلا جسماً مركباً من عظمٍ ولحمٍ وعروقٍ وأعصابٍ وأخلاطٍ وأمزجةٍ مع شهوةٍ

وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاشا لله أن يكون كذلك

ففي هذه الجمل الكريمة رد على ما زعمه النصارى في شأن عيسى وأمه بأبلغ وجه وأحكمه، ولذا عجب الله - تعالى - رسوله وكل من يصلح للخطاب من جهلهم وبعدهم عن الحق مع وضوحه وظهوره فقال:**{انظر كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيات ثُمَّ انظر أنى يُؤْفَكُونَ}** أي: يصرفون يقال أفكه يأفكه إذا صرفه عن الشيء

أي: انظر - يا محمد - كيف تبين لهم الأدلة المنوعة على حقيقة عيسى وأمه بيانا واضحاً ظاهراً ثم انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن التأمل فيها لسوء تفكيرهم، واستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم

فالجملتان الكريمتان تعجيب لكل عاقل من أحوال النصارى الذين زعموا أن الله هو المسيح ابن مريم، أو أن الله ثالث ثلاثة مع أنه - سبحانه - أقام لهم الأدلة المتعددة على بطلان ذلك

وكرر الله - سبحانه - الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب من أحوالهم الغريبة وجيء بثم المفيدة للتراخي في قوله:**{ثُمَّ انظر أنى يُؤْفَكُونَ}** لإظهار ما بين وضوح الآيات وانصرافهم عنها من تفاوت شديد أي: أن بياناً للآيات أمر بديع في بابه بحيث يجعل كل عاقل يستجيب لها، ويخضع لما تدعو إليه من هدايات وخيرات وانصراف هؤلاء الضالين عنها - مع وضوحها وتعاضد ما يوجب قبولها - أمر يدعو إلى العجب الشديد من جهلهم وضلالهم وسوء تفكيرهم

ثم تابع - سبحانه - حديثه عن ضلال أهل الكتاب وجهالتهم فأمر رسوله ﷺ أن يوبخهم على عنادهم وغفلتهم وأن يواصل دعوتهم إلى الدين الحق فقال - تعالى:**{قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ}**[1]

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة /١١٩.

المطلب السادس:

علاقة أهل الكتاب بالمؤمنين

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (١)

أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي وفدا إلى رسول الله ﷺ فأسلموا، قال: فأنزل الله فيهم:**{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الناس عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ اليهود}** إلى آخر الآية قال: فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم النجاشي فلم يزل مسلماً حتى مات، فقال رسول الله ﷺ : **«إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه»** فصلى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة والنجاشي بالحبشه(٢)

ثم قال ابن جرير بعد أن ساق روايات أخرى في سبب نزول هذه الآيات أن الله - تعالى - وصف صفة قوم قالوا: إنا نصارى، وأن نبي الله ﷺ يجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا، لما سمعوا القرآن، وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه(٣)

فقوله - تعالى:**{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الناس عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ اليهود والذين أَشْرَكُواْ}** جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من آيات سجلت على اليهود كثيراً من الصفات القبيحة والمسالك الخبيثة

وقد أكد - سبحانه - هذه الجملة بلام القسم اعتناء ببيان تحقق مضمونها، والخطاب للنبي ﷺ ويصح أن يكون لكل من يصلح للخطاب للإيذان بأن حالهم لا تخفى على أحد من الناس

(١) المائدة: ٨٢ - ٨٦.
(٢) مسند أحمد: ٢٢١١١.
(٣) ابن جرير الطبرى/١١٩.

والمعنى: أقسم لك يا محمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين الحق، ستجد أشدهم عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم: وهما اليهود والذين أشركوا، لأن عداوتهم منشؤها الحقد والحسد والعناد والغرور وهذه الرذائل متى تمكنت في النفس حالت بينها وبين الهداية والإيمان بالحق

وقوله:**{أَشَدَّ النَّاسِ}** مفعول أول لقوله:**{لَتَجِدَنَّ}** ومفعول الثاني**{اليَهُودُ}** وقوله:**{عَدَاوَةً}** تمييز

قال الآلوسي: والظاهر أن المراد من اليهود العموم، أي من كان منهم بحضرة الرسول الله ﷺ من يهود المدينة وغيرهم ويؤيده ما أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : **«ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله»** وقيل المراد بهم: يهود المدينة وفيه بعد، وكما اختلف في عموم اليهود اختلف في عموم الذين أشركوا والمراد من**{النَّاسَ}** كما قال أبو حيان - الكفار: أي لتجدن أشد الكفار عداوة هؤلاء

ووصفهم - سبحانه - بذلك لشدة كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وقربهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء، وقد قيل: إن من مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين بأي طريق كان وفي تقديم اليهود على المشركين إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة

وقوله:**{وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الذين قالوا إِنَّا نصارى}** معطوف على ما قبله لزيادة التوضيح والبيان

أي: لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة لك ولأتباعك - اليهود - والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة ومحبة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى

قال ابن كثير: أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة: وما ذاك إلا لما في قلوبهم - من لين عريكة - إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال - تعالى:**{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً}** وفي كتابهم: " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر " وليس القتال مشروعا في ملتهم

وقال الجمل: فإن قلت: كفر النصارى أشد من كفر اليهود لأن النصارى ينازعون

في الألوهية فيدعون أن لله ولدا، واليهود ينازعون في النبوة فينكرون نبوة بعض الأنبياء فلم ذم اليهود ومدح النصارى؟

قلت: هذا مدح في مقابلة ذم وليس مدحاً على إطلاقه، وأيضاً الكلام في عداوة المسلمين وقرب مودتهم لا في شدة الكفر وضعفه

وقوله:**{ذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ}** تعليل لقرب مودة النصارى للمؤمنين

والقسيسين: جمع قسيس وأصله من قس إذا تتبع الشيء فطلبه، وهم علماء النصارى والمرشدون لهم

والرهبان: جمع راهب كركبان جمع راكب وتطلق كلمة رهبان على المفرد كما تطلق على الجمع، والراهب هو الرجل العابد الزاهد المنصرف عن الدنيا، مأخوذ من الرهبة بمعنى الخوف يقال: رهب فلان ربه يرهبه، أي: خافه

والمعنى: ولتجدن يا محمد أقرب الناس مودة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى، وذلك لأن منهم القسيسين الذين يرغبون في طلب العلم ويرشدون غيرهم إليه، ومنهم الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله وانصرفوا عن ملاذ الدنيا وشهواتهم وأيضاً فلأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى من صفاتهم أنهم لا يستكبرون عن اتباع الحق والانقياد له إذا فهموه أو أنهم متواضعون وليسوا مغرورين أو متكبرين

وفي ذلك تعريض باليهود والمشركين لأن غرورهم واستكبارهم جعلهم ينصرفون عن الحق فاليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار، وأن النبوة يجب أن تكون فيهم والمشركون يرون أن النبوة يجب أن تكون في أغنيائهم وزعمائهم، وقد حملهم هذا الغرور على الكفر بالنبي ﷺ لأنهم وجدوا أكثر أتباعه من الفقراء

قال الآلوسي: وفي الآية دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمودة أينما كانت

ثم حكى - سبحانه - ما كان منهم عند سماعهم لما أنزل الله - تعالى - على رسوله من هدايات فقال:**{وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق}** والمراد بالرسول: محمد ﷺ وبما أنزل إليه: القرآن الكريم

والجملة الكريمة معطوفة على قوله:{وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} والضمير في قوله:{سَمِعُواْ} يعود على الذين قالوا: إنا نصارى بعد أن عرفوا الحق وآمنوا به

أي، أن من صفات هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى زيادة على ما تقدم، أنهم إذا سمعوا ما أنزل على رسول الله ﷺ من قرآن تأثرت قلوبهم وخشعت نفوسهم وسالت الدموع من أعينهم بغزرة وكثرة من أجل ما عرفوه من الحق الذي بينه لهم القرآن الكريم بعد أن كانوا غافلين عنه

وفي التعبير عنهم بقوله:{ترى} الدالة على الرؤية البصرية والتي هي أقوى أسباب العلم الحسي، مبالغة في مدحهم، حيث يراهم الرائي وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثر عند سماع الحق

فلقد كانوا يحسون أنهم في ظلام وضلال فلما سمعوا الحق أشرقت له نفوسهم ودخلوا في نوره وهدايته وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به وحبهم له

وقوله:{تَفِيضُ} من الفيض وهو انصباب عن امتلاء: يقال فاض الإناء إذا امتلأ حين سال من جوانبه

وقد أجاد صاحب الكشاف في تصوير هذا المعنى فقال: فإن قلت: ما معنى قوله:{تَفِيضُ مِنَ الدمع} قلت: معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها أي: تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك: دمعت عينه دمعا

فإن قلت: أي فرق بين من ومن في قوله:{مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق}؟ قلت: الأولى: لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه، والثانية: لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا وتحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم وبلغ منهم فكيف إذا عرفوه كله وقرؤوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد سماعهم للحق فقال:{يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين}

أي: يقولون بعد أن سمعوا الحق: يا ربنا إننا آمنا بما سمعنا إيماناً صادقاً فاكتبنا مع

أمة محمد ﷺ التي آمنت به وشهدت بصدق رسولك محمد ﷺ وبصدق كل رسول أرسلته إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك عنهم ما علمه منهم من إصرارهم على الدخول في الدين الحق، فقال:**{وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بالله وَمَا جَآءَنَا مِنَ الحق وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القوم الصالحين}**

فالآية الكريمة من تتمة قولهم

والاستفهام هنا لإنكار انتفاء الإيمان منهم مع قيام موجباته، وظهور أماراته ووضوح أدلته وشواهده

والمعنى: وأي مانع يمنعنا من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، وبما جاءنا على لسان رسوله محمد ﷺ من قرآن يهدي إلى الرشد ومن توجيهات توصل إلى السعادة ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا - بسبب إيماننا - مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقيدة السليمة، وبالعبادات الصحيحة وبالأخلاق الفاضلة وهم أتباع هذا النبي الأمي محمد ﷺ فأنت تراهم بعد أن استمعوا إلى القرآن تأثرت نفوسهم به تأثراً شديدا فاضت معه أعينهم بالدمع ثم بعد ذلك التمسوا من الله - تعالى - أن يكتبهم مع الأمة الإسلامية التي تشهد على غيرها يوم القيامة ثم بعد ذلك استنكروا واستبعدوا أن يعوقهم معوق عن الإيمان الصحيح مع قيام موجباته وهذا كله يدل على صفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ومسارعتهم إلى قبول الحق عند ظهوره بدون تردد أو تقاعس

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم:**{وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا}** يدل على قوة إيمانهم، وصدق يقينهم، لأنهم مع هذا الإقبال الشديد على الدين الحق والمسارعة إلى العمل الصالح، لم يجزموا بحسن عاقبتهم، بل التمسوا من الله - تعالى - الطمع في مغفرته، وفي أن يجعلهم مع القوم الصالحين من أمة محمد ﷺ

وهكذا المؤمن الصادق يستصغر عمله بجانب فضل الله ونعمه، ويقف من جزائه وثوابه - سبحانه - موقف الخوف والرجاء

ولقد كان ما أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأصفياء من ثواب شيئاً عظيماً، عبر عنه - سبحانه - بقوله:**{فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وذلك جَزَآءُ المحسنين}**

أي: فكافأهم الله - تعالى - بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم، جنات تجري من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار**{خَالِدِينَ فِيهَا}** أي: باقين في تلك الجنات بقاء لا موت معه،**{جَزَآءُ المحسنين}** أي: المؤمنين المخلصين في أقوالهم وأعمالهم

والمراد بقوله:**{بِمَا قَالُواْ}**: ما سبق أن حكاه عنهم - سبحانه - من قولهم:**{رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين}** ورتب الثواب المذكور على القول: لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم، وعلى صدق يقينهم، والقول إذا اقترن بذلك فهو الإيمان

قال الآلوسي: قوله:**{فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ}** أي بسبب قولهم أو بالذي قالوه عن اعتقاد، فإن القول إذا لم يقيد بالخلو عن الاعتقاد يكون المراد به المقارن له، كما إذا قيل: هذا قول فلان، لأن القول إنما يصدر عن صاحبه لإفادة الاعتقاد

وقيل: إن القول هنا مجاز عن الرأي والاعتقاد والمذهب كما يقال: هذا قول الإمام الأعظم أي: هذا مذهبه واعتقاده

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بهذا القول قولهم:**{رَبَّنَآ آمَنَّا}** وقولهم:**{وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ}**

وقد بينت هذه الآية الكريمة أنه - سبحانه - قد أجابهم إلى ما طلبوا، بل أكبر مما طلبوا فقد كانوا يطمعون في أن يكونوا مع القوم الصالحين، وأن يكتبهم مع الشاهدين فأعطاهم - سبحانه - جنات تجري من تحتها الأنهار وسماهم محسنين والإحسان أعلى درجات الإيمان، وأكرم أوصاف المتقين

هذا جزاء الذين سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ فآمنوا به، وقالوا ما قالوا مما يشهد بصفاء نفوسهم أما الذين سمعوا فأعرضوا وجحدوا فقد بين - سبحانه - مصيرهم السيىء بقوله:**{والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ أولئك أَصْحَابُ الجحيم}**

أي: والذين كفروا وجحدوا الحق الذي جاءهم، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق رسلنا فأولئك أصحاب الجحيم، أي: النار الشديدة الاتقاد يقال: جحم فلان النار إذا شدد إيقادها

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت أولئك الذين قالوا إنا نصارى، لأنهم تأثروا بالقرآن عند سماعه فدخلوا في الدين الحق بسرعة ورغبة، فأكرمهم الله غاية الإكرام،

وهذا ينطبق على كل نصراني ينهج نهجهم، ويسلك مسلكهم، فيدخل في الدين الحق كما دخل هؤلاء المحسنون

أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وحججه فأولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير[1]

* * * * *

(١) الآلوسي/١١٥.

المطلب السابع:

إفساد الإسرائليين وتشريدهم في الأرض مرتين

{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآَخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}[1]

{وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً}

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلهم؛ لا أنه قضاء قهري عليهم، تنشأ عنه أفعالهم فالله سبحانه لا يقضي بالإفساد على أحد**{قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ}** إنما يعلم الله ما سيكون علمه بما هو كائن فما سيكون بالقياس إلى علم الله كائن، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد، ولم يكشف عنه الستار

ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة ويسيطرون وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميراً:

{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً}

فهذه هي الأولى: يعلون في الأرض المقدسة، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان، فيفسدون فيها

فيبعث الله عليهم عباداً من عباده أولي بأس شديد، وأولي بطش وقوة، يستبيحون الديار، ويروحون فيها ويغدون باستهتار، ويطؤون ما فيها ومن فيها بلا تهيب**{وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً}** لا يخلف ولا يكذب

(١) الإسراء: ٤ - ٨.

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل؛ فرجعوا إلى ربهم، وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض، أدال الله للمغلوبين من الغالبين، ومكن للمستضعفين من المستكبرين:**{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً}**

ثم تتكرر القصة من جديد!

وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء:

{إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}

القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له، بكل ثماره ونتائجه وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج، وبه تتكيف؛ وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه، إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء

فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة:

{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً}

ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض، اكتفاء بذكره من قبل:**{لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}** ويثبت ما يسلطه عليهم في المرة الآخرة:**{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ}** بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال ويستبيحون المقدسات ويستهينون بها:**{وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار**{وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً}** وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء، والذي لا يبقي على شيء

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد، فسلط على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض، ودمر مملكتهم فيها تدميرا

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل، لأن النص عليها

لا يزيد في العبرة شيئاً والعبرة هي المطلوبة هنا وبيان سنة الله في الخالق هو المقصود

ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة:{عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ} إن أفدتم منه عبرة

فأما إذا عاد بنوا إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية:{وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا}

ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عباداً آخرين، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم «هتلر»

ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لوعد الله القاطع، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف وإن غداً لناظره قريب!

ويختم السياق الآية بمصير الكافرين في الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكله:

{وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً} تحصرهم فلا يفلت منهم أحد؛ وتتسع لهم فلا يند عنها أحد

{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ} إخبار من الله - تعالى - لهم، بما سيكون منهم، حسب ما وقع فى علمه المحيط بكل شئ، والذى ليس فيه إجبار أو قسر، وإنما هو صفة انكشافية، تنبئ عن مآلهم وأحوالهم

والمراد بالكتاب: التوراة، وقيل: اللوح المحفوظ

واللام فى قوله:{لَتُفْسِدُنَّ} جواب قسم محذوف تقديره: والله لتفسدن والمقصود بالأرض: عمومها أو أرض الشام

و{مَرَّتَيْنِ} منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله:{لَتُفْسِدُنَّ} من غير لفظه، والمراد لتفسدن إفسادتين وقوله - عز وجل:{وَلَتَعْلُنَّ} من العلو وهو ضد السفل، والمراد به هنا: التكبر والتجبر والبغى والعدوان

والمعنى: وأخبرنا بنى إسرائيل فى كتابهم التوراة خبراً مؤكداً: وأوحينا إليهم بواسطة رسلنا، بأن قلنا لهم: لتفسدن فى الأرض مرتين، ولتستكبرون على الناس بغير حق، استكبارا كبيرا، يؤدى بكم إلى الخسران والدمار

والتعبير عما يكون منهم من إفساد بالقضاء وأنه فى الكتاب، يدل على ثبوته، إذ أصل القضاء - كما يقول القرطبى - الإحكام للشىء والفراغ منه

وأكد إفسادهم واستعلاءهم بلام القسم، للإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده فهو مصحوب بالتجبر والتكبر والبغى والعدوان

وكان من مظاهر إفسادهم فى الأرض: تحريفهم للتوراة، وتركهم العمل بما فيها من أحكام، وقتلهم الأنبياء والمصلحين

ثم بين - سبحانه - أنه يسلط عليهم بعد إفسادهم الأول فى الأرض، من يقهرهم ويستبيح حرماتهم، ويدمرهم تدميراً، فقال - تعالى:**{فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً}**

والمراد بالوعد: الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم فى الأرض، فالكلام على حذف مضاف، والضمير فى**{أُولاهُمَا}** يعود على المرتين المعبر عنهما بقول:**{لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}**

وقوله:**{فَجَاسُوا}** ممعطوف على:**{بَعَثْنَا}** وأصل الجوس: طلب الشىء باستقصاء واهتمام لتنفيذ ما من أجله كان الطلب

والمعنى: فإذا حان وقت عقابكم - يابنى إسرائيل - على أولى مرتى إفسادكم بعثنا عليكم ووجهنا إليكم**{عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ}** أى أصحاب بطش شديد فى الحروب والقتال، فأذلوكم وقهروكم، وفتشوا عنكم بين المساكن والديار، لقتل من بقى منكم على قيد الحياة، وكان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلكم وسلب أموالكم، وهتك أعراضكم، وتخريب دياركم وعدا نافذا لا مرد له، ولا مفر لكم منه

قال الآلوسى: واختلف فى تعيين هؤلاء العباد - الذين بعثهم الله لمعاقبة بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول - فعن ابن عباس وقتادة: هم جالوت وجنوده، وقال ابن جبير وابن إسحاق: هم سنحاريب ملك بابل وجنوده وقيل: هم العمالقة، وقيل: بختنصر

وسنبين رأينا فيمن سلطه الله - تعالى - عليهم فى المرتين، بعد تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة

فإن قال قائل: وما فائدة أن يخبر الله - تعالى - بنى إسرائيل فى التوراة أنهم يفسدون فى الأرض مرتين وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان، بأن يسلط عليهم

من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم؟

فالجواب: أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله - عز وجل - لا يظلم الناس شيئا، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير، وأن رحمته مفتوحة للعصاة متى تابوا وأنابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار، وهو تنبيه العقلاء فى جميع الأمم أن يحذروا من مواقعة المعاصى التى تؤدى إلى الهلاك، وأن يحذروا أممهم من ذلك، ويبصروهم بسوء عاقبة السير فى طريق الغى، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله - عز وجل

ومن فوائد إيراد هذا الخبر فى القرآن الكريم، تنبيه اليهود المعاصرين للنبى ﷺ ومن على شاكلتهم فى الفسوق والعصيان من المشركين، إلى سنة من سنن الله فى خلقه، وهى أن الإفساد عاقبته الخسران

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول ﷺ الذى ثبتت نبوته ثبوتا لاشك فيه، لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم

ثم أشار - سبحانه - إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار، وهى أن الأمم المغلوبة على أمرها تستطيع أن تسترد مجدها، متى أصلحت من شأن أنفسها، ومتى استقامت على أمر الله - تعالى - فقال - سبحانه: **{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً}**

ففى هذه الآية الكريمة تذكير لبنى إسرائيل بجملة من نعم الله عليهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم من أعدائهم

أما النعمة الأولى فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله: **{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ}**

والكَرَّة: المرة من الشئ: وأصلها من الكَرِّ وهو الرجوع، مصدر كر يكر - من باب قتل يقال: كرَّ الفارس كَرًّا، إذا فر للجولان ثم عاد للقتال

والمراد بالكرة هنا: الدولة والغلبة على سبيل المجاز

أى: ثم أعدنا لكم - يابنى إسرائيل - الدولة والغلبة علىأعدائكم الذين قهروكم وأذلوكم، بعد أن أحسنتم العمل، ورجعتم إلى الله - تعالى - واتبعتم ماجاءكم به رسلكم

والتعبير بثم لإفادة الفرق الشاسع بين ما كانوا فيه من ذل وهوان، وما أفاءه الله

عليهم بعد ذلك من نصر وظفر

قال أبو حيان: وجعل - سبحانه:{رَدَدْنَا} موضع نرد - إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد - لأنه لما كان وعد الله فى غاية الثقة فى كونه سيقع، عبر عن المستقبل بالماضى

وأما النعمة الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله:{وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ}

أى: لم نكتف بأن جعلنا النصر لكم على أعدائكم، بل فضلا عن ذلك، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد، بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم

وأما النعمة الثالثة فتتجلى فى قوله - تعالى:{وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً}

والنفير: من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته، وهو منصوب على التمييز والمفضل عليه محذوف، والتقدير: وجعلناكم أكثر عددا وقوة من أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم

فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم، وأن تحسنوا الاستفادة منها، بأن تشكروا الله - تعالى - وتخلصوا له العبادة والطاعة، فقد نصركم بعد هزيمتكم، وأغناكم بعد فقركم، وكثركم بعد قتلكم

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك سنة من سننه التى لا تتخلف، وهى أن الإحسان عاقبته الفلاح، والعصيان عاقبته الخسران، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله، ونتائج هذا العمل - سواء أكانت خيرا أم شرا - لا تعود إلا عليه، فقال - تعالى:{إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}

أى: إن أحسنتم - أيها الناس - أعمالكم، بأن أديتموها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى - أفلحتم وسعدتم، وجنيتم الثمار الطيبة التى تترتب على هذا الإحسان للعمل، وإن أسأتم أعمالكم، بأن آثرتم الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة، خسرتم وشقيتم وتحملتم وحدكم النتائج الوخيمة التى تترتب على إتيان الأعمال التى لا ترضى الله - تعالى

وقد رأيتم كيف أن الإفساد كانت عاقبته أن{بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار} {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ} فإذا جاء وقت عقوبتكم يا بنى إسرائيل على إفسادكم الثانى فى الأرض، بعثنا عليكم أعداءكم ليسوءوا وجوهكم أى: ليجعلوا آثار المساءة والحزن بادية على وجوهكم، من شدة ما تلقونه منهم من إيذاء وقتل

قال الجمل ما ملخصه: وقولـه:**{ليسوءوا}** الواو للعباد أولى البأس الشديد

وفـى عـود الـواو علـى العبـاد نـوع استخدام، إذ المـراد بهـم أولا جـالوت وجنـوده، والمراد بهم هنا بختنصر وجنوده

وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء المفتوحة والهمزة المفتوحة آخر الفعل**{ليسوء}** والفاعل إما الله - تعالى - وإما الوعد، وإما البعث

وقرأ الكسائى لنسوء - بنون العظمة أى: لنسوء نحن وهو موافق لما قبله، من قولـه: بعثنا، ورددنا، وأمددنا، ولما بعده من قولـه: عدنا، وجعلنا، وقرأ الباقون ليسوءوا، مسندا إلى ضمير الجمع العائد على العباد، وهو موافق لما بعده من قولـه:**{وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ}** **{وَلِيُتَبِّرُوا}**

وقال الإمام الرازى: ويقال ساءه يسوءه إذا أحزنـه، وإنمـا عزا - سبحانه - الإساءة إلى الوجوه، لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة فى القلب إنما تظهر على الوجـه، فإن حصل الفرح فى القلب ظهر الإشراق فى الوجه، وإن حصل الحزن والخوف فى القلب، ظهر الكلوح فى الوجه

وقولـه - سبحانه:**{وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** معطوف على ما قبله وهو قولـه - سبحانه:**{ليسوءوا وجوهكم}**

والمراد بالمسجد: المسجد الأقصى الذى ببيت المقدس، وقولـه:**{كَمَا دَخَلُوهُ}** صفة لمصدر محذوف

والمعنى: وليدخلوا المسجد دخولاً كائناً كدخولهم إياه أول مرة

قال أبو حيان: ومعنى:**{كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** أى بالسيف والقهر والغلبة والإذلال

أى: أن المراد من التشبيه، بيان أن الأعداء فى كل مرة أذلوا بنى إسرائيل وقتلوهم وقهروهم

وقولـه - تعالى:**{وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً}** يشعر بشدة العقوبة التى أنزلها أولئك العباد ببنى إسرائيل، إذ التتبير معناه الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه ومنه قول الشاعر:

ومـــا النـــاس إلا عـــاملان فعامـــل ::: يتبـــر مـــا يبنـــى وآخـــر رافـــع

أى: يخرب ويهدم ما يبنى

و " ما " فى قوله{مَا عَلَوْا} اسم موصول مفعول يتبروا: وهو عبارة عن البلاد والأماكن التى هدموها، والعائد محذوف، وتتبيرا مفعول مطلق مؤكد لعامله

أى: وليدمرا ويخربوا البلاد والأماكن التى علوا عليها، وصارت فى حوزتهم، تدميرا تاما لا مزيد عليه

وبذلك نرى أن العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل، عقب إفسادهم الثانى فى الأرض، لم يكتفوا بجوس الديار، بل أضافوا إلى ذلك إلقاء الحزن والرعب فى قلوبهم، ودخول المسجد الأقصى فاتحين ومخربين، وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميرا فظيعا لا يوصف

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذى حل ببنى إسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين، قد يكون طريقا لرحمتهم، وسببا فى توبتهم وإنابتهم، إن فتحوا قلوبهم للحق، واعتبروا بالأحداث الماضية، وفهموا عن الله - تعالى - سنته التى لا تتخلف، وهى أن الإحسان يؤدى إلى الفلاح والظفر، والإفساد يؤدى إلى الخسران والهلاك

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى أبلغ تعبير وأحكمه فقال - تعالى:{عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً}

أى: عسى ربكم أن يرحمكم: ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخلصتم له العبادة والطاعة، وأصلحتم أقوالكم وأعمالكم، فقد علمتم أنه - سبحانه - لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفعه إلا بتوبة

قال أبو حيان: وهذه الترجية ليست لرجوع دولة، وإنما هى من باب ترحم المطيع منهم، وكان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمدا - عليهما السلام - ولكنهم لم يفعلوا

وقوله - سبحانه:{وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا} إنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم، إن عادوا إلى فسادهم وإفسادهم

أى: وإن عدتم إلى المعاصى ومخالفة أمرى، وانتهاك حرماتى، بعد أن تداركتكم رحمتى، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار

ولقد عادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان، حيث أعرضوا عن دعوة الحق التى جاءهم بها الرسول ﷺ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض بل هموا بقتله ﷺ وأيدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين، فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم النبى ﷺ وأصحابه بما يستحقون من إجلاء وتشريد وقتل

قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: " عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين "

ثم بين - سبحانه - عقوبتهم فى الآخرة فقال:**{وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً}** أى: إن عدتم إلى معصيتنا فى الدنيا عدنا عليكم بالعقوبة الرادعة، أما فى الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم**{حصيرا}** أى: سجنا: حاصرا لكم لا تستطيعون الهروب منه، أو الفكاك عنه، أو فراشا تفترشونه، كما قال - تعالى:**{لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وكذلك نَجْزِي الظالمين}** قال بعض العلماء: " قوله:**{حصيرا}** فيه وجهان: الأول: أن الحصير المحبس والسجن من الحصر وهو الحبس: يقال حصره يحصره حصرا، إذا ضيق عليه وأحاط به

والثانى: أن الحصير: البساط والفراش، من الحصير الذى يفرش، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا "

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد حكت لنا قضاء الله - تعالى - فى بنى إسرائيل، وساقت لنا لكى نعتبر ونتعظ ألوانا من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف، والتى من أبرزها أن الإيمان والصلاح عاقبتهما الفلاح، وأن الكفر والفساد عاقبتهما الشقاء، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى

هذا، والذى يراجع ما قاله المفسرون فى بيان العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول والثانى فى الأرض، يرى أقوالاً متعددةً يبدو على كثير منها الاضطراب والضعف

ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - أن الله - تعالى - عهد إلى بنى إسرائيل فى التوراة**{لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ}** فكان أول الفسادين: قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، وكان يدعى " صحابين " فبعث الجنود، وكانوا من أهل فارس فتحصنت بنو إسرائيل ودخل فيهم " بختنصر " - أحد جنود

صحابين - وسمع أقوالهم إلخ

وهذا الأثر من وجوه ضعفه، أن غزو النبط ومعهم بختنصر لبنى إسرائيل سابق على زمان زكريا - عليه السلام - بحوالى ستة قرون

لأن الثابت تاريخيا أن بختنصر غزا بنى إسرائيل وانتصر عليهم ثلاث مرات: الأولى فى سنة ٦٠٦ ق م والثانية فى سنة ٥٩٩ ق م، والثالثة فى سنة ٥٨٨ ق م

وفى هذه المرة الثالثة أكثر القتل فيهم، وساق الأحياء منهم أسارى إلى أرض بابل

أما زكريا - عليه السلام - فمن المعروف أنه كان معاصرا لعيسى - عليه السلام - أو مقاربا لعصره، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى

وإذاً فالقول بأن إفسادهم الأول كان لقتلهم زكريا، وأن المسلط عليهم ملك النبط ومع " بختنصر " يتنافى مع الحقائق التاريخية

وفضلا عن ذلك، فإن هذا الأثر اضطرابه ظاهر، لأن " صحابين " ملك النبط، هو الذى يسميه المؤرخون " سنحاريب " وكان ملكا للأشوريين، وهو الذى غزا مملكة يهوذا سنة ٧١٣ ق م أى قبل غزو بختنصر لها بأكثر من مائة سنة، أى: أن بختنصر لم يكن معاصرا له

والرأى الذى نختاره: هو أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول، هم جالوت وجنوده ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى أمور من أهمها ما يلي:

١ - ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة، عند عرضه لقصة القتال الذى دار بين طالوت قائد بنى إسرائيل، وبين " جالوت " قائد أعدائهم، ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من أعدائهم

ويتجلى هذا المعنى فى قوله - تعالى:**{أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإ مِن بني إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ موسى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا}** فقولهم - كما حكى القرآن عنهم:**{وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا}** يدل دلالة قوية، على أنهم كانوا قبل قتالهم لجالوت مهزومين هزيمة اضطرتهم إلى الخروج عن ديارهم، وإلى مفارقة أبنائهم

٢ - قولـه - تعالى:{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ} صريح فى أن الله - تعالى - نصر بنى إسرائيل - بعد أن تابوا وأنابوا - على أعدائهم

وهذا المعنى ينطبق على ماقصه القرآن علينا، من أن بنى إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده

قال - تعالى:{وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ الله وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ الله الملك والحكمة وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ} ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبنى إسرائيل، فقد جاءهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، وبعد أن اعترضوا على اختيار طالوت ملكا عليهم، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم ولاشك أن النصر فى هذه الحالة، أدعى لطاعة الله - تعالى - وشكره على آلائه

٣ - قولـه - تعالى:{وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً} أكثر ما يكون انطباقا على عهد حكم طالوت، وداود، وسليمان لهم

ففى هذا العهد الذى دام زهاء ثمانين سنة، ازدهرت مملكتهم، وعز سلطانهم وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة، وبالبنين الكثيرة، وجعلهم أكثر من أعدائهم عددا وقوة

أما بعد هذا العهد، بل وقبل هذا العهد، فقد كانت حياتهم سلسلة من المآسى والنكبات فبعد موت سليمان - عليه السلام - سنة ٩٧٥ ق م تقريبا، انقسمت مملكتهم إلى قسمين: مملكة يهوذا فى الجنوب، ومملكة إسرائيل فى الشمال، واستمرتا فى صراع ونزاع حتى قضى الأشوريون سنة ٧٢١ ق م على مملكة إسرائيل، وقضى " بختنصر " على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م

٤ - ذكر بعض المفسرين أن العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الأول هم جالوت وجنوده أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قولـه:{فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} قال: بعث الله عليهم فى الأولى جالوت، فجاس خلال ديارهم، فسألوا الله - تعالى - أن يبعث لهم ملكا، فبعث لهم طالوت، فقاتلوا جالوت، وانتصروا عليه، وقتل داود جالوت، ورجع إلى بنى إسرائيل ملكهم فلما أفسدوا بعث الله عليهم فى المرة الآخرة " بختنصر "

فخرب المساجد، وتبر ما علوا تتبيرا

هذه بعض الأدلة التى تجعلنا نرجح أن المراد بالعباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض، هم: جالوت وجنوده

أما العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الثانى، فيرى كثير من المفسرين أنهم: " بختنصر " وجنوده

وهذا الرأى ليس ببعيد عن الصواب، لما ذكرنا قبل ذلك من تنكيله بهم، وسوقهم أسارى إلى بابل سنة ٥٨٨ ق م

إلا أننا نؤثر على هذا الرأى، أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثانى، هم الرومان بقيادة زعيمهم، تيطس سنة ٧٠ م لأمور من أهمها:

أ - أن الذى يتتبع التاريخ يرى أن رذائل بنى إسرائيل فى الفترة التى سبقت تنكيل "تيطس " بهم، أشد وأكبر من الرذائل التى سبقت إذلال " بختنصر " لهم فهم - على سبيل المثال - قبيل بطش الرومان بهم، كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى - عليهما السلام -، وكانوا قد حاولوا قتل عيسى - عليه السلام - ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم

ب - ضربات الرومان - فى ذاتها - كانت أشد وأقسى على بنى اسرائيل من ضربات " بختنصر " لهم

فمثلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة " تيطس " بلغ مليون قتيل، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير بينما عدد القتلى والأسرى منهم على يد " بختنصر " كان أقل من هذا العدد بكثير

ولقد وصف المؤرخون النكبة التى أوقعها الرومان بهم، بأوصاف تفوق بكثير ما أوقعه البابليون بقيادة بختنصر بهم

يقول أحد الكتاب واصفاً ما حل باليهود على يد " تيطس " الرومانى: كان " تيطس " فى الثلاثين من عمره، حين وقف سنة ٧٠ م أمام أسوار أورشليم على رأس جيشه، بعد أن بدأت المدينة تعانى من أهوال الحصار

وبعد أن اقتحم " تيطس " وجنوده المدينة، أصدر أمره إليهم: أن احرقوا وانهبوا

واقتلوا، فأموال اليهود وأعراضهم حلال لكم، وقد أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه، وتحققت نبوءة المسيح - عليه السلام - حين قال: ستلقى هذه الأرض بؤسا وعنتا، وسيحل الغضب على أهلها، وسيسقطون صرعى على حد السيف، ويسيرون عبيداً إلى كل مصر، وستطأ أورشليم الأقدام

ج - النكبة التى أنزلها الرومان بهم - من حيث آثارها - أشنع بكثير من النكبة التى أنزلها بختنصر بهم لأنهم بعد تنكيل بختنصر بهم وأخذهم أسرى إلى بلاده وبقائهم فى الأسر زهاء خمسين سنة عادوا إلى ديارهم مرة أخرى، بمساعدة " قورش " ملك الفرس، الذى انتصر على " بختنصر " سنة ٥٣٨ ق م تقريبا، وبدؤوا يتكاثرون من جديد

أما بعد تنكيل " تيطس " بهم فلم تقم لهم قائمة، ومزقوا فى الأرض شر ممزق، وانقطع دابرهم كأمة

وقد صرح بهذا المعنى صاحب تاريخ الإسرائيليين فقال بعد وصفه لما أوقعه " تيطس " بهم من ضربات: إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمة، فإنهم بعد خراب أورشليم على يد " تيطس " تفرقوا فى جميع بلاد الله، وتاريخهم بعد ذلك ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوها أو نزلوا فيها [1]

* * * * *

(١) سيد طنطاوي: ٢٨٢.